المندرجات

وقعت في هذه النسخة بعض اغلاط لا تخفى على القارئ اللبيب

من وجهه الى قلمه أحسست بأن السر الذي يعجز عن الاسراع في نقشه على الطرس سيؤلمني برهة ولكنه سيريحني كثيراً ولذا فاني انتظرت انتهائه من الكتابة بشوق وفروغ صبر واذ ذاك مدّ اليّ بالدفتر وهو يؤكد على ان أكتب في ذلك الموضوع الذي نقشه في رأس الصحيفة فقرأته واذا به :

﴿ الجسم في غربة والروح في وطن ﴾

هو الان شديد الحذر بالتكتم فكأن المشاق والمصاعب قد ضاعفت به القوة على حفظ السر اذا اراد ، فكنت افكر في هذا واوقن بأن ليس من سبيل الى معرفة خوافي قلبه الا بالحزن والالم الشديد الذي يطرأ عليه فيضطره الى الاعتراف عن كل ما به الى صديقه !

وجاءالي في احدى الليالي فتنبأت من خطوط وجهه عن عظم ألمه : أخرج من جيبه بعض الجرائد الطرابلسية ، فقرأها لي بشوق وحنين وقص علي كثيرا مما يعلمه وسمعه من حوادث واخبار وطنه ، تكلم كثيرا ولكني رأيت الكلام ترك في نفسه اثرا مؤلما في هذه المرة فهو يتنهد من حين لآخر وينظر الي نظرات كلها انين من ثقل مايحمل من الهم والغم ، فعلمت ان الساعة ازفت وان الوقت قد حان واردت ان ادخل من اى بحث كان الى ما اردت معرفته ، الا أنه سبقني الى ذلك فلم يترك لي مجالاً للقول فاخذ الدفتر الذي اكتب به (الاغاني) ونظر في وجهي برهة ثم قال :

— أتكتب فيما اريد ياصبحي ؟

فقلت له باطمئنان : اجل !

فاخذ القلم اذ ذاك وكأني كنت ارى تلك الكآبة قد تسربت

ابتسم لي ابتسامة ذات معنى وتركني مهرولاً الى حيث يتبع الخادم الذي كان قد حمل اوعيته !!

***

انتهت الحرب .. ورجع كلٌ الى أهله ... وعاد هو الى دمشق:

شهدته بعد مضي اربع اعوام على افتراقنا فعانقته بحنو وأسبلت امامه دمعة حوت كل ذكرى الايام المدرسية اللذيذة فقابلني بمثلها :

هو لا يزال كما كان .. وتلك لا تزال .. كما كانت !

وجلسنا نتشاكى الفراق فكان يصف لي ما عاناه في سفره بقلب سبر الآلام جيداً فاذا تكلم عنها عرف كيف يثير الافئدة بغصصها وقدر ان يسقي السامع شيئاً مما تجرعه في ديار الغربه

سمعت احاديثه بشوق وأشفاق ،

وحددت له ميعاد اللقاء كيلا تفوتنا فرصة الاجتماع التي تذكرنا بلذائذ الماضي !

***

كثر اجتماعي به فكنت لا اجد لذة الا بقربه ولا اطمأن الا اذا جلست اليه فشكوت فاشكاني وسرى بعض احزاني

هو يقدر على منحي شيئاً من السرور بلقائه اما انا فهيهات !

بكل معنى الكلمة نتمم بكلمات الوداع المرة ، ونصمت حيناً لئلا ندع للدمع مجالاً في افهام ما يعسر علينا تعبيره من الكلمات ودام جلوسنا زمناً !

ونظرت اليه في الاخير نظرة طويلة فأدركت ان ذلك الحزن وتلك الكآبة التي صحبته منذ دخوله الى هذه الغرفة لا تزال بادية على محياه وأني لأراه عازماً على استصحابها معه الى حيث يقوده التعس والشقاء !

هو يريد ان يضم عليها عناء الجندية ومشاق السفر ، معتقداً بأنه سيستمد من هذا الضم قوة عظيمة على مكافحة الدهر

تلك كانت معاني نظراته جواباً على نظرتي الطويلة فهو لا يريد ان يقبل رجائي بأبقائها لي . . أو عندي . .

لا يحب ان يودعها احداً فهي له . . ويعيش بها . . ولا يريد عنها بدلاً !! وفوق ذلك فهو لا يزال بتكتمه وأخفاء معانيها عني . . ودعته وبودي . . .

ولما هززت يده وشعر بأن هذه الهزة كلها رجاء بطلب ذلك السر

هو اذا ثارت عواطفه . اشبه بالنار الملتهبة فلا يقبل عما دله عليه قلبه بديلاً . فيدافع عن مطلبه واعتقاده . كما لو اتيح له ان يدافع عن وطنه وبلاده ولكنه بعد ثورته النفسية . لا يلبث ان يعود الى ما كان عليه .. الى كآبته التي يتلذذ بها ... وحزنه الذي يعيش به و.. وألمه الذي يقتات منه . كنت استغرب هذا الفرق العظيم، بين عواطفه اذ يثور وشعوره اذ يهدأ وأوقن بان لروحه على نفسه سلطاناً غريباً لا يشاهد الا في القليل من الناس !

حاولت كثيراً في فهم كنه السر وتلك الكآبة فلم افلح !

انه يحب التكتم ولا يريد ان يذهب شيئاً مما به باعترافه الى صديقه ..

انه اشترى هذه الآلام بثمن غالٍ — كما يظهر — فلا يحب ان يبيعها رخيصاً .. انه يعلم انها سلواه وعزائه فلا يحب ان يفرط فيها يود ان يستخلصها لنفسه فلا تشاركه فيها الناس وهكذا عشت معه ما ينوف عن أربعة أعوام ...

* * *

ولما طلب الى الجندية في بدئ النفير العام جلس الى جانبي ليلة الوداع فكان جلوسنا منفردين في الليلة الاخيرة ، أشبه بجلوسنا في الاولى الا ان العواطف كانت قد اكتست حلة جديدة فنحن الآن اصدقاء

تحجب عينيه السوداوتين عن ما امامها من الناس فيصبح وليس في هيكله الذي اراه الا النفس الذائبة حزناً والمصهورة بنار الألم ! وكنت كثيراً ما اتقدم نحوه اذ يكون بهذه الحالة ولكني كنت احترم منه ذلك السكوت والسكون فأجاريه عليه وآذن لروحي انا ايضاً في ان تطير اني شاءت

أجل ! كان لي شبه به من حيث تبلبل الفكر وانشغال الخاطر ولكن شتان بيني وبينه فأني وان كنت في بحار افتكار وتأمل عميق ، ولكنه هو في بحار تلك الكآبة التي هي أبعد من ان يسبر لها غور ..

هي ليست بكآبة حب وغرام فأن الحب يذيب ولكن كآبته لا تدعو للأشفاق في اكثر الاحيان ! .

ان عواطف الغرام تكتب في الأعين سطوراً لا تخفى قراءتها على من يعرف معنى الشعور فهي وان كانت محرقة موجعة فأن لها نوراً يسطع فوق الجبين فلا يضطر الناظر — كما اجد انا امام كآبة صديقي هذه — ان يبذل اشفاقه ويواصل الأنين

انها كآبة لم استطع فهمها ولا قراءتها فهي مغامة عريضة قد كتبت بلغة هي أبلغ بكثير من لغة الشقاء !

استحكمت عرى الصداقة بيننا وكم اعجبني دفاعه عني يوماً أمام معلم اراد ان يبخسني حقاً !! ..

الى الأعتقاد باخلاصي له فيما بعد : (ذلك شأن التلميذ ، يبيع ابتسامته لكل الناس بأرخص ثمن مع انها أجل ابتسامة علت فوق ثغر ،)

الا أنني لم اندم حتى الآن على ما بعته له وفرطت فيه . لا واني لأذكر ان نظراتي وأبتسامتي له اذ دق الجرس للخروج من الغرفة تلك الليلة كانت مملوءة بكثير من المعاني والوعود ، واخصها الوعد الجازم بمحو تلك الكآبة التي شهدتها في محياه والتي لم تفارقه في كل اقواله وكلماته . أجل وعدته بهذا وأشهد الله على سعيي المتواصل في تحقيق هذا الوعد

ولكن ما أرق شعور هذا الفتى : ان ما اراه كانت في تلك الكآبة التي تعلو محياه وعزائه لم يكن الا في التلاميذ تواجهها اذ ينفرد بنفسه (وكم يحب الانفراد !) ..

هو يحب اللعب . يحبه كثيراً شأن كل تلميذ ذكي ولكنه اذا تعب منه ذهب الى زاوية اختارها لنفسه من زوايا الملعب وبدأ بمراقبة اللاعبين حيناً .

ثم أني كنت اراه يدعو روحه لمفارقة الملعب ومن فيه ، فيحدق احداق الذاهل ويطير بروحه ومن يدري الى اين ؟

كل السر في تلك الكآبة !! .. فأنها كانت تزداد امتداداً حتى

ورأيت بينهم فتى صبيح الوجه، جذاب العينين ينظر الينا من طرف خفي وقد علت وجهه الجميل سحابة حزن ندية تعشش في القلب المتألم لذة الألم وتنبت فيه ازهار الحزن .. فاستقرت انظاري عليه وتمنيت ان يسمح له الناظر بالجلوس عندنا فنخفف عنه شيئاً مما لحظته به من العناء ونستمع احاديثه عن وطنه الذي فارقه فذاق المر بفراقه وهو لا يزال يافعاً

واستجيبت دعوتي بالتمني فتقدم الناظر الي وقال أجلسه معك فهو من رفقاك بعد اليوم . فوقفت له باسماً وأجلسته معنا وانبرت عليه انا ورفيقي بالأسئلة مدفوعاً بعامل غريب ، خلافاً لآداب المجاملة الواجب اتباعها في هذا الموقف

كان لصوته نغمة عذبة ، لست ادري كيف جذبتني له من أول دقيقة قضيتها معه ، فكنت اذا سألته عن شيء وبدأ بالأجابة أنصت اليه وفي نفسي كثير من اللذة التي اختطفها من نبرات صوته الهادئ ومن جمله الرقيقة المتقطعة

شعرت منذ ذلك بأنه سيكون صديقاً لي . وكأني ادركت ما سيكون لي معه في المستقبل فكنت احاول ان افتح له بابتساماتي طريقاً

الجسم في غربة والروح في وطن !

لا ازال اذكر :

كنت في غرفة المطالعة أتحادث مع احد رفاقي التلاميذ في درس التاريخ واذا بجلبة في الباب . فالتفت واذا بالناظر قد دخل مع نفر من الفتيان :

تلاميذ ولا شك . ولذا فاني بدأت — شأن كل تلميذ — احدق فيهم فاحصاً احوالهم وحركاتهم فلا ارفع نظري عنهم .

جلهم قد تجاوز العشرين من العمر وقد بدت على وجوههم السمراء مع علائم النجابة والذكاء أثار الارتباك والحياء فوقفوا ينتظرون امر الناظر بالجلوس في المحل الذي يختاره لهم بفروغ صبر ..

وعلا الهمس في الغرفة اذ ذاك فعلمت ممن كان بجانبي انهم من طرابلس الغرب وانهم من المهاجرين فازدادت نظراتي اليهم ولكنها كانت في هذه المرة ممزوجة بشيء من الاشفاق والتألم على هؤلاء التعساء الذين ابعدتهم المطامع عن وطنهم العزيز واقصتهم الآنفة وحب التلذذ بالحرية عن السماء التي تنفسوا هواءها كثيرا والارض التي ولدوا وترعرعوا وعاشوا فيها طويلاً !

ايهذا التعيس ! ...

هنا وقف به الالم فرأيته وقد طأطأ رأسه عند هذا الوعيد وقد ثارت العواطف في نفسه فسالت بصورة دمعة حمراء على مآقه وهنالك تململ في مقعده ثم تهيأ ليقول اعترافه المر بكل خضوع وذل فتشنجت اعصاب وجهه ويديه ومد بهاتين الاخيرتين الى الامام يحاول أن يسكت تلك الباكية بكل جزع ويأس ثم سالت من فمه إذ ذاك كلمة :

(أوف) ! !

ولوى برأسه بعنف ونظر الي إذ ذاك فكان كمن يتنصل من تهمة الخضوع الى هذه الدرجة ويقول بلسان الحال : . — أبداً . أبداً !...

غير أن الناي عادت الى الانين فكانت نغمة (الحجاز) التي ثارت فيها هذه المرة تقول بكل شدة وقوة ووضوح :

ايها الجاهلُ

أيها الغافلُ ،

انت في ذا العناد

وبذا الابتعاد

عن مواساتنا

قد تركت الحياة .

تستذل الدموع ،

فتميت الذي ،

يتغذى بها ،

فلك الويل إن

أنت لم تعترف ،

فاعترف !

اعترف !

واللیالي الطوال ؛

انها لا تزال .

تقتل البائسين ...

اعترف ! ...

— لا . لا !

هذه كانت معاني نظراته وما يفهم من حالته بعد هذا . فعادت الناي الى نغمتها الاولى بصوت أرق وتأثير أشد وقالت وهي توضح له الامر وتحاول اقناعه بما في وسعها :

ان نوح الحمام

وبكاء الغمام

وذبول الزهور

في صدور الحسان ؛

كلها تشتكي

مث[illegible]نت [illegible] من :

نائبات الزمان

فاعترف ! ...

لم يعبأ بهذا الطلب وذلك الامر وهز رأسه إستهزاء

فعاد الزامر الى ذاته وكانت نغمات الناي في هذه المرة رقيقة مثيرة فكأنها تقص نبأ مفجعاً او تبسط قضية محزنة

انها كانت تقول :

ان معنى الحياة

ايهذا التعيس ،

تعب لاسواه . . .

. . . . .

فابك مثلي على

ما بها من شقاء

واعترف ! . . .

ولعل هذه الكلمات تركت في نفسه أثراً للقبول فنظر الى الفقير نظرة اشفاق وحنان فكان كمن يطلب الاستزادة والافاضة ليقف على ماهية هذا الطلب وكنه الاعتراف فيصدر قراره أما بالانقياد أو الابتعاد فعاد الزامر وقالت الناي :

إعترف بالهموم ،

والنوى والغموم ،

هي ، ربما كانت في معنى مخصوص غير الذي استخلصته ولكني أنا لم افهمها الا كما اردت وكما رأيت من أن فؤادي وفؤاد صاحبي سيفهمها دون ترجمة ولا تفكير !..

اجل : ان في تلك النغمه من المعاني ما ليس بقدر على فهمه ذلك الزامر فهي وان كانت بلغته — لغة الشقاء — الا انها عويصة الرموز والأسرار لا يفهمها الا نحن..

واعادها ثانية :

فتفهمتها جيداً ، ونظرت الى وجهه فعلمت من خطوطه وتجعداته صدق ظني فألويت برأسي عنه وبدأت انقش في مخيلتي حديثها .

انها كانت بلهجت الآمر الصارم !

انها كانت كوعيد وتهديد !

انها كانت :

إعترف !

ولم افهم دخل هذا الطلب بغتة ولكني ادركته بعد حين عندما رجعت بمخيلتي الى ذكر إباء صديقي وعدم انقياده للحادثات فهي بهذا الطلب تريد منه ان يكون (انساناً) و (بشراً) فلا يتعدى ذلك الى ما فوق !

اما هو فلا يزال على ما كان عليه :

في بحار لاقرار لها من تشتت الفكر وشرود الذهن

وبينما نحن كذلك هو في تمعنه في حقائق الدهر وانا في تشتت الذهن وشرود الفكر اذا بفقير ولج الباب وفي يده قصبة ادركت انها (ناي) وعلمت منها انه زامر ، فحاولت ان امنعه عن الزمر وأصده منذ وصوله ولكنه رفع رأسه قليلاً وتمعن به برهة ثم نظر الي وقد عرف مأربي وقال لي بسكينة : دعه وشأنه

وازمر انت ايها الفقير !

***

انا اعرف ان (الناي) من أرق الآلات الموسيقية وأشدها تأثيراً في القلب والنفس واذا فأني حسبت لهذه البرهة التي سنقضيها (أمامها) الف حساب وبدأت أرقب حركاته بشوق ممزوج بألم موقناً بأنها ستمهد له سبيل الدموع والبكاء بحسرة وحرارة

وجلس الفقير اذ ذاك وأخذ القصبة بين يديه ثم وضعها على فمه وأمال برأسه عليها وبدأ ينفث فيها الاشجان مما املاه عليه مجلسنا المهيب المحزن ومما هو كامن في نفسه ومقيم بصفته تعيس وبائس

زمر الزمرة الأولى وهي نغمة قصيرة قطعت بأنه حاذق فما شككت بأنها فاتحة الالهام الذي ستوحيه الينا تلك القصبة الحقيرة :

لو استطاع ان يتناسى جميع ما لحق به من الكوارث مبتدأ بالملمة الكبيرة الاخيرة !

أجل هو لا يريد ان يعترف بتعاسته، بعجزه عن مقاومة الفوادح فهو شامخ الرأس مشمخره لايخطر بباله ان يعترف بذلك الاعتراف المر ولو بتنهد خفيف او انين ضعيف !

فغبطت في نفسي الرجل على ما خص به من موهبة وكدت ان أبدأه بالحديث بعد ان رأيت ما رأيت . الا اني لم أكد حتى رأيت صاحب المحل واقفا في الباب . .

فازددت حيرة وألما ورأيت من واجبي ان أحول دون مخاطبته مع صاحبي لا سيما اذا كان الامر في مسئلة الاجرة فقمت اليه على الفور . وأرجعته معتذراً له بذكر الحادث وراجياً ارجاء الطلب الى وقت آخر !

ولما رجعت رأيته يهز رأسه هزاً متوالياً ذا معنى خاص وقد صر بأسنانه على (نرجيلته) مما أكد لي انه فهم كنه المسألة وعلم بالامر . الا انه مع هذا وذاك لا يزال كما فهمت من هز رأسه واطباق حنكه بأسنانه يهزأ بكل هذه النوازل ولا يريد ان يقر بسلطتها على نفس كنفسه !

رأيت منه ذلك فقلت في نفسي ان في خلقه شؤون وجلست غارقاً

وما اعظم حيرتي ! :

انه كان كعادته جالساً هادئاً في مقعده فلا يعلم الناظر اليه بوجود خطب جلل يحوم فوق رأسه الا بذلك الدخان الكثيف الذي أنعقد فوق رأسه من (تنباك نار جيلته)

ورحب بي اذ دخلت الا انني ادركت ان بصوته ارتجافا ينبئ عما في صدره من ضيق !

ولم أجد مجالا للحديث اذ قد احترمت صمته فجلست افكر في هذه القوة الهائلة الموجودة في هذا الرجل موقناً بان في هذا العالم من ابطال الشقاء ما لا يقلون في مواقفهم هذه عن مواقف اكبر الرجال العظماء :

انه كان مشمحر الرأس على اثر هذه الضربة . وقد عقد حاجبيه فبان فيهما الغضب لا الحزن على هذه المصائب التي المت به الواحدة بعد الثانية !

انه لا ينكر عظم الخطب . كما تشهد بذلك تقلصات وجهه ونيران نارجيلته . ولكنه لم يعره ما يتطلبه من الالتفات فهو بذلك يثبت جلياً مالعقيدة (القدر) في بعض الاحيان من الفائدة الجلى !

ان اسى : انه كان بنظراته الحادة المملوءة سخطاً على هذه الحياة واتكالا على (الله) يكاد ان يتناسى هذا الحادث الاخير المؤلم لا بل يود

ــ الى أين ــ الى المقهى :

ــ انصح لك ان لا تذهب ــ ولماذا :

لان امرأة الرجل قد ماتت اليوم وهي بحالة تبكي الجماد : فصعقت في مكاني اذ انقض علي هذا النبأ انقضاض الصاعقة فلم اشعر بذهاب الرجل من امامي وابتعاده عني

ورأيت من واجبي عدم الابطاء في تخفيف المصاب عن صاحبي فلم أعبأ بنصيحة ذلك الرجل وتابعت السير وانا افتكر بكلمته : « انه بحالة تبكي الجماد » :

كنت أظن باني سأفاجئه الآن وقد اجهش بالبكاء فبللته الدموع فلا ادري كيف ارتب كلمات التعزية وتعبيرات التسلية . لا بل كنت اظن ان هذا الخطب قد اصماه فهو لا يسمع ولا يرى ولا بد من مجاراته بالنحيب لعدم امكان مؤاساة امثال هؤلاء الا بهذه الوسيلة : ولقد كنت غارقاً بهذه التصورات قبل ان اصل الى المحل . ولكنني احسست اذ قربت منه بان خفقان قلبي قد ازداد واني بت على حال من الشعور لا احسن فيه الافتكار والتخيل . لا ولا التمييز وابتكار المعاني وما ذلك الا لاني بت على بعد خطوات من الباب الذي سيوقفني على امر المصاب

من مشاهدته يجرع مر السلوى فيما يرويه ويتلوه وهو في حالة تدعو الى الاشفاق بعد ان باتت تنذر بالخراب

وعلمت بعد حين بان امرأته التي يحبها كثيراً لا تقل عنه ثباتاً وشجاعة في هذا المضمار ، ولعلها هي صاحبة الفضل في إلباسه أجمل لباس العزاء مع ماهو عليه من خفض العيش والرجوع الى الوراء ! وقد اصبحت منذ ذاك اجدني مضطراً الى الابتهال ببقاء هذا الكنز الوحيد له والذي يستلف منه أثمن ماينفقه في سبيل الصبر والتأسي !! ....

***

بعد شهرين من تعارفي معه علمت بانه على وشك الافلاس وان صاحب الدكان سيضطره الى اخلائها لاعتقاده بعدم امكانه دفع الاجرة فيما بعد ، فتلقيت هذا الخبر وانا احجم عن تخيل ذلك البائس يخرج طريداً من محل انفق فيه كل مامعه ، تاركا تلك الآلام الى تلك الساعة التي لابد من اسبال دموع الاسى فيها

كنت آتياً الى المقهى بعد غيبوبة اسبوعين وانا اسرع لاقف على ما تم في غيابي مع صديقي واذا بأحد من كنت اراه يجلس معنا عنده تقدم نحوي وسلم علي ثم ابتدرني قائلا :

عن قصته الحزنة فلا ينهض السامع من مجلسه الا وفي آماقه أنقى الدموع التي تسيل حزناً على نكبات انسان تاعس في الحياة . اما هو فكان اذا انتهى من سرد مابدأ به جعل خاتمة كلامه نكتة يطرب بها السامع او نظرة هزؤ على تلك الدمعة النقية التي سالت من آماق جليسه فكنت ارى منه هذا فأزداد اعجابا بهذه البسالة التي تفوق في نظري بسالة اولئك القواد الذين يخوضون المعامع فوق جثث الرجال ودماء الابطال .

هذا ومما كان يزيدني تعلقاً به واحتراما له ما كنت اراه من معاكسة (الحظ) له وعدم الاقبال على المقهى الذي افتتحه مع انه كان لايدخر وسعاً في امر نظافته والاعتناء براحة ضيوفه مع تقديم افخر المشروبات لهم الامر الذي دعاني ان افضل الجلوس في مقهاه على كثير من تلك الفخيمة الكبيرة : .. مع هذا فكنا نحن الضيوف لانتجاوز العشرة في كل يوم ....

ولم يكن هذا النقص في مسألة المعيشة الا ليزيده ثباتا واقداما في محاربة النوائب فكان اذا جلس ورآني تبدو على وجهي علائم الالم والله يشهد انها من اجله — جلى عن صدري الهم بقصصه الكثيرة التي يرويها لي ونوادره المضحكة التي يتلوها علي ؛ الا اني لاانكر ضيق صدري

أمام الناي

— الى صديقي الأديب السيد مصطفى الصواف —

قتل اخوه غيلة ،

وألحق به ابنه البكر ،

ثم مات الصغير !

فكان هذا الحادث الاخير سبباً لأثارة حقده والانتقام من قاتل الاخ والابن والفرار الى مكة من بلاده — بلاد العجم — والمجيء منها الى الشام فحلب بعد ان ادى فريضة الحج في بقاعه المخصوصة :

غير ان الايام التي ناصبته العداء لم تتركه آمناً مطمئناً هنا ايضاً فاختطفت منه سلواه وعزاءه الوحيد في هذا العالم وهي ابنته !!..

ولقد كانت معرفتي به بعد هذه الحادثة الاخيرة ، اذ افتتح مقهى كان يؤمل ان يعيش بدخله منه في مدينة كبيرة كحلب : تستوجب نفقات باهظة . وكان كثيراً مايقص علي اذ كنت اجلس اليه وقائعه وكوارثه هذه بنغمة لاتخلو من الحزن ولكن لم اسمعه مرة واحدة تذمر من الاجحاف الذي خصته به الحوادث ؛ او من الظلم الذي رمته به تلك الكوارث ؛ فهو اذا تكلم ترك لعواطفه العنان في التعبير

ثم قرأت له ما كتبته في الموضوع فسمعه وهو يزداد الما ولم يصبر الى ان اتمه فاختطف الورقة من يدي ورمى بها الى الارض :

انه يحب ان اسيل الدموع بهذه الحادثة .. ويود ان اثير العواطف بهذه القصة .. يريد ان أنادي فأسمع من اناديه ولكني لم افعل ؛

عفواً . لم استطع ، اذ ليس ذلك في يدي . فجلس ينظر الي نظرات شديدة الوقع في قلبي احتملتها منه بصبر وسكون !..

وسكن ثائره بعد حين فسألني معاتباً : ولماذا لم تجد هذه المرة يا اخي؟

— أنت اردت ذلك !!!

وكان هذا الجواب كافياً لان يذكره بفعله معي ، فسكت طويلا وفكر كثيراً ثم رفع رأسه وقد قرأت في عينيه نظرات الحنو والاشفاق وقال لي بنغمة كئيبة وصوت مرتج :

ابك يا اخي بعد اليوم ،

ابك ، !

ابك ! !

فكنت أرى ارواح الأمويين ترفرف فوق الاشجار الباسقة الظاهرة فيها وتلك الطيور التي عليها لا تزال تصدح بمجد العرب منذ مئات من السنين

كنت كأني اسمع صوت الوليد يخطب منها

كنت كأني ارى اشباح (الملوك) تخطر فيها

كنت ارى واسمع . كما هؤلاء السياح يرون ويسمعون :

وأحب أحدهم ان يحصل على قطعة من هذا الأثر النفيس . فنفح الخادم بقطعة من النقود وطلب منه ان ينتزع له شيئاً منها :

يالله كم آلمني هذا الطلب وذلك الخضوع .. بل كم آلمني ماوقع أخيراً

ان هذا الجاهل (الخائن) عاد وقد احضر سلالم طويلة وبيده الثانية (مكنسة) ثم انه صعد وضرب ذلك الوجه الصبيح بها فأسقط كثيراً منه وشوهه ونزل ضاحكا مسروراً من عمله فألويت بوجهي عنه وخرجت اعدو وانا لا ادري كيف اسكن ثائر غضبي :

***

قصصت على صديقي القصة بعد يوم ما اتممتها حتى وقف وهو يرتجف حزناً وغضباً .

انا البارحة كما اراد الله : واليوم كما اراد صديقي وشتان بين الارادتين !!

كنت اشعر بما اجده في كتاباتي من النقص واحدث صديقي عنها ولكنه كان يسعى لاقناعي بأن ذلك تابع للعادة واني سوف اصبح عن قريب كما كنت .. لا بل انه كان يشجعني بقوله مداعباً : اراك بدأت تحسن الابتسام اكثر من البكاء ياصبحي فالى الامام ، الى الامام ، لاتبك ، لاتبك !

لا أكذب : كنت اراني ارجع خطوة الى الوراء في كل يوم واصبحت اخشى مجيء يوم لا احسن فيه هذا ولا ذاك فأصبح كذلك الطائر !! وقد اردت ان افاتح صديقي بهذا الشأن ولكني كنت افهم من نظراته عدم قبوله الخوض في هذا البحث فأصبر على مضض وأنا اردد في كل موقف اضطر فيه الى الرجوع كلمته التي ترن في اذني : لا ..... !

*

دام هذا الى ان كنت يوماً في جامع بني امية واذا بي ارى نفراً من السياح واقفين أمام القطعة المنقوشة على جدار الجامع من الخارج والتي هي الأثر الباقي من كثير آثار اولئك الاجداد الامجاد

رأيتهم امامها خشعاً خضعاً وقد وقف احدهم يحاول تصويرها

في شبابنا فان ابتسامتي هذه ستفعل ما لا تفعله الدمعة ، انها ستكون ابتسامة الحزؤ والازدراء وهي السلاح القاتل الى هؤلاء

سأبتسم : اذا رأيت الجهل قد أوقع بيننا نحن ابناء الامة الواحدة العداوة والبغضاء حتى بتنا نكره ان نعيش سوية في وئام واتحاد فان ابتسامتي هذه تراتيل والحان يطرب لها (الغد) الكفيل برفع الغشاوة عن الاعين وهتك حجاب الجهل

سأبتسم : اذا طلبت نفسي الراحة بالبكاء فان ابتسامتي هذه صدى صوتك الخالد في اذني : لاتبك ! لاتبك !

سأبتسم ، سأبتسم لكل شيء فطمأن بالك ايها الصديق !

***

وعدت صديقي بالابتسام وليتني مافعلت !

قسماً :

كل ما في الحياة يدعو الى الدمع . وليس في هذه البيئة التي انا فيها والتي حوت من مجد آبائي الخالد والتالد الا المشاهد الباكية معي على ماأراه من تقلب الدهر واعوجاج الايام . ولكن قلت ولا انكث بقولي :

انا لا ازال اكتب فيما يعن لي . فالكتابة (داء) و (دواء) ليس لي عنها مناص وانما اين (انا) اليوم و (أنا) البارحة ؟

اقبل احتجاجك اذ ان القدرة في قلبك تابعة لأرادتك وتمكنك ان تصنع منها ما تشاء . .

اني ارى هذا يضر بك فارجوك رجاء لا اقبل له رداً ان تغير خطتك فيما بعد فتكتب في اي موضوع شئت ومتى اردت على ان لا تبك »

***

افترقنا تلك الليلة فتركته وانا افتكر بما قال :

(لا تبك !)

هذه وصية صديق مخلص يجب ان احلها محل النظر والأهتمام فهي صادرة عن قلب ينبض اخلاصاً لي ويهتم بأعز شيء لدي : بحياتي . .

يجب ان لا ابكي ايها الصديق بعد اليوم ...

هذا هو رأي بعد افتكاري بالقضية :

سأبتسم : اذا رأيت بائساً او يائساً منذ اليوم فربما زاد بكائي في المه وقضى عليه

يجب ان ابتسم له لأعلمه الصبر فيرى من هو مثله في الحياة هازئاً ضاحكاً من خزعبلاتها فلا يعير نكباتها اهتماماً

سأبتسم : اذا رأيت الدعارة والانحطاط قد بلغ الغاية القصوى

ثم تصورت ان اشتغال فكره هو في اهم من هذا وقلت لعل القصة تركت في نفسه اثراً محزناً فهو يتلذذ بتخيل مشاهدها المؤلمة كما يقع في بعض الاحيان للانسان ولكني تيقنت اخيراً بان ليس شغله في هذا ولا ذاك بل هو في غيره وهاني هذا الامر :

وكأنه علم بما دار في خلدي فرفع رأسه ونظر الي نظرة طويلة اشفعها بتنهد خفيف ثم قال :

« يؤلمني ياصديقي ان اراك في كل ما تكتب تحاول ان تمزج دمعتك بدموع غيرك وتسعى في أن تقرن ألمك بألم الناس فتسمع القارئ ألحاناً ليست في الارض ولكنها في السماء بعدأن يلمس بسطورك كل اشواك الالم الموجعة ويجرع سمومه القتالة ! ..

انا اعلم انك بهذا تبث شيئاً من همك وتزيل مافي صدرك واعرف انها فطرة فطر الله عليها اكثر الناس من الكتاب . ولكنك تجاوزت المألوف فأصبحت اذا كتبت ولو في الأبتسام اضطررت قارئك لأسبال الدموع حتى ينال ما اردت وما اراد .

كل ابتساماتك دموع .. وكل آمالك آلام : وجميع ما تكتبه لا يخرج عن ألحان متقطعة تقطع نياط القلوب !! ..

يمكنك ان تحتج بعدم قدرتك على الأجادة الا بهذا ولكن لا

لا تبك !!

لي صديق يحب ان يقرأ لي كل ما اكتب وأنا ايضاً احب أن أسمع كل انتقاداته وكثيراً ما كنت اعمل بها فأراها اقرب الى الصواب —

وقرأت له في يوم شيئاً مما كتبت فسمعه بسكون وهدوء واصغى الي بكل جوارحه ..

أتممت القراءة وهو لا يزال مصغياً ويده على خده كأنه يفكر في امر هام .. !

نظرت اليه فوجدته يحب ان يطيل هذا الصمت فاحترمت هذا الحب وظللت انتظر ارادته بالقول :

كان ماقرأته له واقعة سمعتها عن فتاة احبت فتى وكانت مخطوبة الى آخر فخالت الأم دون هذا الحب وكانت النتيجة ان ماتت الفتاة بداء التعصب الوبيل . وختمت حياتها بالدعاء والابتهال الى الله ان يغفر لقاتلتها وان لا يعاقب (امها)

ظننت ان افتكاره — كعادته — في ضعف احد الأبيات او احدى الكلمات فبقيت برهة لا أجزع من الانتظار

نظمت شيئاً ثم كتبت نثراً

فلم يعجبني النظم ولا النثر

ذلك لاني لم ار فيهما الروح التي كنت أؤمل ان أراها مرفرفة فوق سطوري فأرميت بالقلم جانباً واتكأت على مقعدي وأنا لا أرى التبعة الا واقعة عليه بعد ان افرغت جهدي .. وقمت بواجبي

هو في زاوية من زوايا المنضدة يئن ولا يصعب على من سبر معنى الانين في الناس ان يسمع انين (الجماد) ايضاً :

انه يؤنبني على (اهانته) بعد ان استشرت كثيراً غيره ولم استشره مع انه هو صاحب الرأي واليه المصير !

انه يناديني ويفصح بالنداء

انه يقول :

اي صديقي العزيز !

ان اردت ان تكون شاعراً فاشتر قلباً .. باكياً !!

انهم يطلبون الاستقلال من الحياة وهم يزمجرون ويدمدمون وينادون ويطلبون فكأن الامر بيده يؤتيه من يشاء !

ولحظت ان في الجموع شاباً علا صوته فوق الاصوات وقد تعمم بخرقة سوداء ارخي طرفاً منها على اذنه وهو ايضاً يصيح ويلح فكان منظره وحماسه عجيباً مما حدا بي الى مراقبته بشوق برهة ! ويا لهول مارأيت !

انه خبأ في جيبه زجاجة خمر وفي الاخرى كأساً . فكان يغتنم الفرصة من حين لآخر ليفرغ الكأس في جوفه ثم يقدم آخر لرفيقه

وعلا الضجيج من الامام وكثر اللغط وعظم هذا على صاحبنا ولعله حنق حنقاً شديداً من ان يغلبه غيره بالصياح فلم يتمهل الى ان يخبئ الزجاجة في ردائه واصبح فلا يترك غيره مجالا بل جعل منها ما يساعده على ذلك فرفعها بيده ورفع باخرى كأسه ثم صاح بصوت المنتقم الظافر

نريد . . . .

اسرعت بالهرب الى البيت مما رأيت وشهدت وعلمت ان افضل ما اجرد له القلم هو هذه الحادثة التي تنطوي معهامعاني كثيرةفأخذت طرساً واسرعت فتناولت قلمي :

المستقبل الذي أريده .. ليس من العجيب ان أكون من ابناء الشرق في القرن العشرين فاخترع وأبدع وافعل كما يفعل الغربي وأنبغ كماهو..

أجل من وطني هذا. من الشرق يسطع النور وفيه هذبت العصور ومنه تعلم الغرب دخائل الامور فليس من الغريب !..!

ليس من العجيب ان أكون ابن الشعب فارتفع المقام الذي يراني فيه العالم اجمع فكل هؤلاء هم من الشعب

إنا الآن عظيم بآمالي وغداً باعمالي واليوم اقرب ما اليه غده

فاطمأني يانفسي فها انا قد اشتريت :

وها انا قد اتممت مهمتي ايها الناصح :

.— لك ان تمسك القلم اذا أردت !

ياطربي : اجبت واردت وعملت فاصبحت شاعراً !

مري امامي ياحدثات القوم فسأجعلك قوافي لقصائدي الرنانة !

* * *

خرجت في زمن (الاحتجاجات !) و (المظاهرات !) من البيت واذا بي اسمع ضجيجاً علا واصواتاً بلغت عنان السماء :

سألت عن الخبر فقيل لي هذه مظاهرة ! فتقدمت نحو الجموع ووقفت :

مستجيرة وقد أسبلت دمعة بيضاء نزلت دمعة حرة من عيني لو وقعت على هؤلاء السفلة لأحرقتهم كما يحرق الكبريت عود الحطب . . .

أطلعت (معلمي) على ماعملت وأنا وجل من أن يأمرني بشراء شيء جديد لاسيما وكل ماينفق في هذا السبيل هو من المواضع ولكنه لم يعبأ بوجلي وأشار علي بأن اشتغل :

آمالا :

خلوت بنفسي وقد قرأت في ذلك اليوم كثيراً عن حياة (العظماء) في العالم . .

قرأت عن شكسبير . زولا . روستان . باستور . ابن رشد . ابن سينا ومحمد عبده

قرأت عن هؤلاء فقلت في نفسي :

وأنا . . ؟ . .

لم أخلق لالا أكون (رجلا) و (عظيما) والاخير في مذهبي من ينفع قومه ولا يؤذي الناس وليس ببعيد على أن أكون كهؤلاء . .

ليس من الصعب ان اقول لنفسي كوني فتكون وانا شاب لي من قوة ارادتي وشديد عزمي ؛ ومتين جلدي ما يجعلني ان اخلق لنفسي

اشتر ابتسامة ! ! . . .

ذهبت الى مدرسة لي برئيسها معرفة وصداقة فرحب بي واكرمني ثم قادني الى احد الصفوف . . دخلته واختبر امامي التلاميذ : فسرني ما رأيت من ذكاء . . اطربني ما شهدت من نبوغ . . ارقصني الامل بقرب (الغد) الزاهر . خرجت من هناك وعلى شفتي ابتسامة لو شهدها هذا الشرق الباكي لمسح دمعته وسجد للسماء ! !

اشتريت ابتسامة يا صديقي العزيز ولا انكر ان تجارتي ستربح ولكني . . .

— ودمعة ! !

خرجت الى السوق واذا بي ارى فتاة ارتدت ثوباً هو الخلاعة وملاءة هي الدعارة وهي تنظر الى ما حولها نظرات الرجس والضلال فحرك بي هذا الانحطاط عوامل الالم ولكني لم اباله فتقدمت الى الامام وسرت . . . رأيت نفراً من الشبان يتبعون امرأة تتعثر بالحياء وتكاد تكبو بالخجل وهم يرمونها ببذيء اللفظ وفاحش الكلام وقد علا صوتهم بالضحك والاستهزاء حتى لم يبق في المارين من لم تشمئز لهذا العمل نفسه وينفر له أباؤه فآلمني هذا المنظر اشد ايلام وما رأيت (التعسة) قد سدت عليها المذاهب وكادت ان تستغيث

اجل . قربت من ذلك ولكني كنت لا ارى في نفس تلك القدرة التي اريدها في فمي . ولا تلك الروح التي اجدها في اقوال الشعراء . .

لا وليس لي ذلك القلب الذي اسمع خفقانه في أبيات البحتري والمتنبي وابي تمام ! ! . . .

كانت تؤلمني رؤيتي في نفسي هذا النقص فأخبرت استاذي بما اجده فلم يجبني بسوى : اشتر ! اشتر !

اشتريت كلما قال عنه ولكن تلك الثلمة لم تسد : فأنا في الطريق ولكني لست بشاعر ! !

ولما اوقفته على الخبر كان جوابه لي كالأول : اشتر ! اشتر !

علمت اذ ذاك انه لم يبق لديه مايدلني عليه فانكببت على قراءة تلك الكتب بشوق ورغبة . . . ألفتها كثيراً حتى بت لا أنام الا وفي يدي واحد منها . . . ولكني لا ازال كما كنت . . ولم اصل :

منها . . . ولكني لا ازال كما كنت . . ولم اصل :

ليس لي إلا المطالعة ولا بد من انها ستوصلني . . .

وبينما كنت اناجي احد الكتاب في سطوره وفي النفس ألم لم يبارحني منذ تطلبت الشعر سمعت كأنه يقول لي :

خطوت الخطوة الأولى وقد وضعته في جيب ردائي وأنا انظر الى ما حولي نظرات التيه الاعجاب ووقع خطواتي يقول : أفتحولى الطريق أنا الشاعر ...

وما اسرع ماعرفت خطأي !

مضت السنون وتقدمت في السن وأنا لا ازال بذلك الأمـل ولم يتغير في الا الحب فقد أصبحت شاباً وانقلب الحب (ارادةً) والأمل (عملاً) فأنا الآن لا أحب وانما اريد ان أكون شاعراً !! ...

أريد ... والارادة مقترنة بالوصول الى المراد اذ أن الشاب في مذهبي قد خلق من (جبروت) الله وقدرته كما خلقت الفتاة من ابتسامته وحنانه . فهو اذا سار فلا بد ان يصل واذا شاء فلا يبعد عن الامل العمل ولذا فاني كنت على يقين من نجاحي وبت على علم من انه لا ينقصني الا السير في الطرق القريبة !!

ودلني استاذي عليها فقال :

اشتر ديوان البحتري فاشتريته .. اشتر المقـامات . اشتر كتب الجاحظ . اشتر كتب الثعالبي ... اشتر .. اشتر .. فاشتريت كثيراً من الكتب الادبية واصبحت مذ ذاك اجرب نفسي في نظم القصائد والابيات فأراني أكاد اقرب مما اريد

أنا والشعر !

أمنيتي منذ الصغر ، هي في الشعر

فكنت اذا سألني ابي او احد معلمي عما سأسلكه من الفنون في المستقبل . اجبته بكل ما في الكلمة من فخر : أحب ان اكون شاعراً .

اجل : كنت احب ان اكون ذلك الرجل دون ان اعلم انه يبتسم لغيره ويبكي للناس ودون ان اعرف نكبات هذا المخلوق في هذه الحياة . وكثيراً ما كنت اختلي بنفسي لافكر في كيفية الوصول الى هذه البغية البعيدة . . وشعرت في احدى الليالي بأن هذه الافكار بدأت تستولي علي فعلقت بي وأخذت بلبي فأصبحت أنظر في الكتاب دون ان أفهم مافيه وأحدق و لكن في غير سطوره .

فكرت كثيراً وكاد وقت المطالعة ان ينقضي . وكدت ان اخرج ولكنني أصغيت اذ كأني سمعت نداءً خفياً يقول لي : اشتر قلماً . .

(شراء قلم) سيوصلني الى غايتي ومطلوبي !

طرت فرحاً بهذه الوسيلة التي هي قريبة المنال وأسرعت في اليوم الثاني الى (المسكية) واشتريت قلماً جميلاً انفقت عليه كل مامعي . .

ونحن أيضاً بحسبنا التاريخ امة من الامم : اما دورنا الاول فقد مثله القتيل والقاتل ! وها ان الثالث تمثله كل من أراه في هذا المساء !! فأين الثاني

اين دور النبوغ والابداع ؟

أين دور افتتاح الامصار وتخليد الآثار ؟ . ! تلك التي ستقوم مقام هذه التي ستطمس بعد حين

أين . . . ؟ أين . . . ؟

تلك كانت كآبتي حين هرولت للمنزل لأجد من يخاطبني فيقطع علي تصوراتي ويبعد عني هذه الخيالات المؤلمة ! !

تكلمت مع كثير فلم أنجح فيما أردت :

لم أنجح لأني كنت اقطع على مخاطبي حديثه بدافع قوي لاقول له بما تشبهه الدموع :

تعسةً الامة التي كل ادوارها كأس ! ! ! . . .

النور اكثر مما دافع هذا عن اصحابه ... اجل كنت افتكر بهذا لاسواه !!

ولم يقطع علي التفكر الاسماعي جلبة من بعد لم تلبث ان اقتربت فتحققت مصدرها واذاهم جنود

ياللهول : انهم يحملون قتيلا ... قتل لاجل دريهمات لاتتجاوز القليل .. قتل . وافضع من قتله ما شهدته بالجنود :

انهم سكارى ... ويحملون قتيلا !!!

ولما رآني احدهم انظر اليهم بما هم أهله ناداني قائلاً :

•— وعلى م هذا ياصاح : اننا ذقنا المر في سبيل الحصول على جثة الرجل . وقد وجدنا الخمر في متاعه أفلا نسرى عن انفسنا ....

•— امش يابني ...

ياالعجبي : انني ارى هنا جماعة يسكرون .. وهنا أيضاً .. وماذااسمع : وهؤلاء يتواعدون للذهاب فى المساء لى (الجنينة) وعلى شفاههم ابتسامة تنطق بما ينوون !!

رأيت كل هذا فسالت من في كلمة صاحبي :

الكأس .. . والادوار ثلاثة !!..

***

الاخلاق . ايها الاسد !!.. الاخلاق . ايتها الأجيال !!...
فخذاها ، وافهماها وارضيا بالحكم مني ! و اتركاني أخرج فقد سئمت منظر الدمار !! .. ..

* * *

انحدرت من مقعدي ببطء وهدؤ واتجهت نحو القرية :

وكان طريقي يتصل بوادي يبعد عنها مقدار ساعة فسرت فيه متئداً وانا اجد لذة بطوله . ولا افتأ ارجع ببصري الى الوراء لأتزود من تلك المعالم المندرسة بما اقطع به الوقت في (اغنية) هذه الليلة !! ..

أجل ! كنت اجد لذة كبيرة في تلك النظرات وهذا السير اللذين انعشا بي قلباً ذابلاً من الضوضاء . فكنت امشي بهدو وأنا لا افتكر بشيء من اموري الحياتية حتى ولا بأقوال صاحبي وادواره الثلاثه !! كنت افتكر بآثارنا التي ستحل محل هذه المندرسة . واصور لنفسي مبلغ تأثيرها في نفس من سيفارقها مثلما أترك انا هذه !!

كنت مفتكراً بالأسود (الكثيرة) التي سنتركها على مدخل باب (ملاعبنا) فنبدع فيها اكثر مما ابدع هؤلاء . فتدافع عن ابناء

— عفواً ايها الصاحب فقد أسأتم فهم (القدر) ...

— صمتاً ايها الجاهل فلولا ذلك لما اتيت ولما رأيتني ...

ثم انه غاب من امامي فجأة فانتفضت رهبة من هذه الغيبوبة والتفت الى حولي فاذا بي لا أزال :

في الملعب القديم الذي لعب الرومان فيه بالدهر

والذي أنا فيه بعد ان لعب بهم ! ! ..

امامي احجاره المبعثرة .. وعلى بابه الاسد الرابض .. وفي اذني اصوات الدويبات والكل بانتظار حكمي :

لكل امة ثلاثة أدوار : الجوع والنبوغ والرجوع ..

هي تصنيف صاحبي الآن وقد أجد : فالدور الاول هو حقاً دور الجوع والثاني كما قال .. اما الثالث فهو الرجوع . وعلته الكأس .. ومعناه الفساد : فساد الاخلاق وفيه الدمار !

هذه معاني بسيطة في نظرنا نحن ابناء العشرين . فقد ذكرها لنا التاريخ في كل صحيفة من صحائفه حتى باتت من التعبيرات المبتذلة والمصطلحات التي يسأمها القارئ ..

(الاخلاق !!) كلمة قيلت مراراً وتكراراً فأصبحت الاذن تسمعها باشمئزاز كما اتلفظها عالياً انا الآن !!

- الى الكأس ! !

(هذه كلمة لها رمز خاص عندهم على ما ارى) فقلت له مستغربا :

- وهل هناك حفلة عامة دعى اليها الشعب فهم ...

- لا ! وانما لكل منا في بيته كأس !

- وبعد هذا ؟

- الى الكأس :

- اريد ان أقول لك وبعد الكأس ؟

- الى الكأس :

- يالله أوليس لكم من عمل غير هذا !

فضحك ... ضحك حتى ظننته جاوز حد الادب بضحكه ؛ ولكنه ادرك مني ذلك فقال :

- لاتعجب ايها الصديق : فلكل امة — كما لنا — ادوار ثلاثة : دور الجوع وفيه نشارك الوحوش بهمجيتها فنقتل الضعيف لنأكل الرغيف . ودور النبوغ والابداع وفيه نعمر الامصار ونفتتح الاصقاع . ودور الرجوع وفيه نعتنق الكأس الى ان يظهر من هو احق منا بالحياة فنترك ما بأيدينا الى يده ونودع اللذات غير آسفين عليها فذلك صنع القدر

الوحوش . . . الوحوش . . . ياللقلوب من نظراتها ! !

والرجل .. الرجل يا للحيرة من بسالته

نشبت المعركة . . وابتدأ النضال . . . علا الضجيج . .

دوى الهتاف . .

. . . . . .

. . . .

يا لله ! قد مزقت الوحوش ... !

ها اصوات الحسان والاستحسان قد بلغت عنان السماء :

هاهم يريدون الخروج ! ..

خلى المكان من الكل . وبقيت وحيداً فيه :

لا : بجانبي رجل ينظر الي شزراً ، فكأنه يريد ان يكلمني

تقدم ياصاح ولا بأس عليك . فنحن ابناء النور لانخيف ولانخاف .

سلني عما بدالك على ان تجيبني عما سأسأل ! ! ..

سألني كثيراً وأجبته طويلاً وجاءدوري فقلت وقد أنست بمحادثته

واعجبت بصراحة قوله :

. رأيت القوم يخرجون بسرعة وشوق من هنا فالى اين يذهبون ؟

فابتسم وقال :

القدر : القدر : هو حجة الجبان ايها الاسد فكفى :

وانت : سمعاً ايتها الاجيال فقد سمعت اقوالكما وسأختلي بنفسي لاصدر الحكم ..

*

يالله :

كأني أرى البناء قد عاد الى ما كان عليه !! فهنا مقصورة الملك . وهنالك مقاصير الامراء .. وها انا اسمع زئير الوحوش .. وها هي الناس تدخل زرافات ووحدانا ..

تدخل وهي تنظر بحيرة الى هذا الذي لم يأبه لدخول الكبير والصغير لا ولا لدخول الامير الخطير !!

انا ممتد على الاحجار وعلى شفتي ابتسامة تهكم على هذه الازياء الغريبة التي تبعد كثيراً عن مظاهر مدنية القرن العشرين :

هي سراويل قصيرة ؛ وسرابيل اشبه بتلك التي يزخرف بها الصبيان ألاعيبهم ! !

أجل على شفتي ابتسامة تهكم لم تعجب القوم فقابلوني بمثلها ولم يسؤني ذلك فعلى المسيء ان ينتظر هذه النتيجة !... وها هم ينتظرون ابتداء اللعب بفروغ صبر :

قعدت على حجر من احجاره . وفي النفس حزن لم اعلم سببه الا بعد حين :

هو حزن الانسان للانسان وتألمه عند تقهقر اخيه في الميدان .

هو حزن ليس فيه فضيلة الاشتراك بالمصائب . بل هو توجد من قرب الساعة التي ستصيبه فيها النوائب : هو أشبه بندب الباكي أباه بقوله : من لي بعدك ؟

فهو يبكي نفسه ولا يبكي الراحل ! !

وكأني وقد توسدت الاحجار واطلقت للفكر الجولان في ميدان الاعتبار : كنت كمن يسمع قهقهة الاجيال باصوات الدويبات . تهزأ بابن آدم القوي الضعيف وتقول بصوت اسمعنيه الصمت والسكون :

مه : ايها الانسان المغرور . في الحول والطول ولك الخيال والزوال ! !

ولكن : هناك .. على مدخل الملعب .:

اسد رابض ابدعت نحته البشر فمثلت فيه قدرتها يلتفت الى جهة الصوت بما في نظراته من رهبة وقسوة وتحفز للقيام : كأنه يقول :

« صمتاً ايتها الدويبات . فلك ان تهزأي بالبشر وليس لك ذلك على القدر ! .. »

وقفة على طلل

هنا : (في جرش) ملعب قديم لعب الرومان فيه بالدهر . .
وانا الآن فيه .

بعد ان لعب بهم !!

انا الآن فيه في موقف الحكم ! . . تضطرني العظة والاعتبار لأن أكون عادلا وما اظلم الانسان اذا لم ير للعدل اضطراراً !!! . .

امامي بناء مشمخر عطس بالكبرياء والشمم وانما ارغم أنفه على الانهيار ؛ وها هي احجاره المبعثرة ، كأنها سلاح المغلوب الملقى الى جانبه بعد المعركة . .

هنا : مثلت مأساة من ادوار الحياة على هذا الملعب ، بدأت بالضحك والهزل وانتهت بالبكاء والدم فما افظع النتيجة

هنا : كانت الرومان تفترس الوحوش بين هتاف الحسان وضجيج الشبان ! !

وهنا الآن تفترسهم الاجيال ، فتنقص من بنائهم كل يوم حجراً وتنقض من آثارهم كل ساعة أثراً !!

وتقدم اذ ذاك فتى اشعث الوجه ، مغبر الثياب وهو يلهث من التعب والركض ونادى ثانية وهو يخترق الصفوف يقف في المحل المعد للطلب :

وانا ! انا (الشرق) يارب فمالي عندك ....؟

فسمع اذ ذاك صوت (القدرة) مرتجاً ، يرتجف غضباً تقول :

— ويحك (واين كنت) حتى الآن !؟

— كنت .... كنت ، ألهو بنزاع وقع بين اديانى الكثيرة التي تناولتها منك البارحة يارب

— وماذا تريد بقولك (الكثيرة) ايها الابله . وهل في غير دين واحد هو التحابب ؟ فاذهب .. اذهب من امامي فان لك (الخسران) مازلت لاهياً !!...

أنا (الكذب) . — لك (الفضيحة)

أنا (الخيانة) . — لك (الكره)

أنا (الامانة) . — لك (الاعتماد)

وتقدمت بعد ذلك فتاة تمنطقت بدرع من الزرد وتقلدت سيفاً صقيلا وأمسكت برمح وفي يدها درقة فأعجب الكل بمنظرها وصاحت بصوت عال :

انا (القوة) ايها الرب !!

— لك (الحق) ايتها اللبوة !!

وكان آخر من تقدم فتىً نظيف الوجه والثياب . وضع على عينيه نظارة زرقاء وتأبط محفظة من الجلد وفي يمينه عصا جميلة فدار بينه وبين الرب حديث طويل لم يسمع الكل منه الا كلمة الرب الاخيرة :

(اوصيك) به خيراً !!...

ولم يبق من يتقدم للعطاء فاخذ كل يهنئ صاحبه بما ناله من الهبات وما اكتسبه من الصفات . فعلت لهذا ضوضاء عظيمة وكاد رئيس الملائكة ان يصرف الجميع !

وفيما هو على وشك النداء اذا بصوت سمع من بعيد يقول :

وانا : وانا يارب ! مالي عندك من الهبات ؟؟

.– لك (الحقيقة) ايها الفتى المحبوب !

وتقدمت فتاة لها نظرات النمر ومشية الاسد وقالت

انا (الارادة) يارب !

.– لك (القدرة) ايتها الفتاة !

ثم تشجع الجمع بعد ذلك فأخذوا يتقدمون واحداً بعد واحد

ويرجعون بمنحهم شاكرين مكبرين وكان منهم من تقدم فقال :

انا (العمل)	. – لك (السعادة)
انا (الكسل)	.– لك (الفشل)
أنا (الشيخوخة)	. – لك (طول الامل)
أنا (النفس البشرية)	. – لك (الشره)
أنا (الفصاحة)	. – لك (الالسنة)
أنا (الجمال)	. – لك (الكمال)
أنا (الحب)	. – (لك القلب)
أنا (الشاعرية)	. – لك (كل ما في الكون)
أنا (الضمير)	. – لك (المصرع الوخيم)
أنا (العيون)	. – لك (الجاذبية)
أنا (الشقاء)	. – لك (الدموع)

« بالغة وابدعت صوركم وانا المبدع تعاليت عن الشباه و الانظار »

سبحانك اللهم ! سبحانك اللهم !

« وقد دعوتكم لأسبغ عليكم نعمي ولأهب كلا منكم (صفة) »
«توطد اركان هذه الحياة التي ستحيونها والتي كلها آثار شاهدة »
«على قدرتي ! »

« فليتقدم الي كل منكم وليعلن اسمه على رؤوس الاشهاد وليقبل ما»
«سأمنحه من الخصائص والصفات ولا يحاول الرد والاعتراض فانتم»
«الجهلاء وانا العليم الخبير ! »

— سبحانك اللهم ! سبحانك اللهم !

« أجل ! تقدموا يا ابنائي واعلموا باني سأقيم بخصائصكم هذه وزن»
« الحياة الفانية فاعملوا بها ما زالت (واذكروني اذكركم واشكروا لي »
« ولا تكفرون) » . . .

وساد السكوت وعم الصمت فعلم الجميع انه لم يبق الا الامتثال فاخذ كل ينظر الى هندامه ويصلح به ما يراه مختلا

واذ ذاك تقدم فتى صبيح الوجه تسطع منه الانوار وعليه علائم الرصانة والوقار ونادى بصوت رنان :

انا : انا (العلم) يارب فمالي عندك من الهبات ؟

السمع : يا ابناء القدرة فان العظيم الجبار . سيتجلى ليغدق عليكم نعمه ! !

وهنا ساد الصمت على الجميع فلم يسمع في انحاء الملكوت غير اصوات تشبهها الالحان، هي نغمات الملائكة في عليين . القائلة بخشوع وخضوع :

سبحانك اللهم ! سبحانك اللهم .

وسجد الملائكة بعد حين . وهم يرتلون هذه الاناشيد . فأدرك الناظرون ان الساعة ازفت وان الوقت قد حان ؛

ثم سطع نور عظيم من جميع الاطراف فأحس الكل بهيبة امتلأت بها نفوسهم وخشوع اطمأنت له قلوبهم فشاركوا الملائكة في تهاليلهم وصاحوا بصوت واحد :

سبحانك اللهم ! سبحانك اللهم !

وطأطأت الرؤس اجلالا وعاد الصمت فملأ الارجاء

واذ ذاك سمعوا صوتاً – لم يعلم مصدره – ملأ القلوب هيبة وجلالا يقول بنغمة لاهوتية خاصة به :

« لقد شاءت ارادتي يا ابنائي في ان تكونوا في العالم الذي ابدعته »

« لكم وهيأت لكم فيه اسباب الحياة : خلقتكم ولي في ذلك حكمة »

اين كنت ...

كان ذلك في اليوم الثاني من خلق هذا العالم الفاني :

دوى صوت في الكائنات :

أن اليّ يا ابنائي فسأمنحكم الصفات ! . .

وما هي الا برهة حتى امتلأت السماء بالمخلوقات . بين شابة وشاب وطفل وعجوز وشيخ وغلام ،

واخذ الكل يتهامسون فيما بينهم عما سيكون نصيب كل منهم من هذه المنح الآلهية فكان لهذا الهمس ضجيج وضوضاء . علت حتى ظن الملائكة ان الحياة البشرية التي حدثهم الرب عنها في اليوم الاول قد ابتدأت وانهم سيرون منذ تلك الساعة آثار القدرة بأبهى وأجلى مظاهرها فانصتوا باجلال وخشوع ! !

انصتوا وقد علت وجوههم الصبيحة علائم الاشمئزاز من هذه الجلبة التي عكرت عليهم صفو سكونهم المهيب ، والتي اشغلتهم عن عبادة القدير هذه البرهة ... ولم يطل ما هم فيه حتى سمعوا رئيسهم الكبير ينادي بصوت يأخذ بمجامع القلوب :

ويا لسوء حظ اليتيم ! :

انه طلب منه ان يأتي بشيء من تلك الغرفة فذهب طائعاً . . .

ولكنه ما كاد يخرج حتى داهمته العجوز :

وكأنها ذكرت ما كان من امر الصغير معها قبل ايام . فألقت بسرعة نظرها على النظارات ولم تكد تشعر بعظم (المصيبة !) حتى امسكت المسكين حنقة مرتجفة واشبعته لكماً وضرباً !

لا ازال اذكر هيئته اذ رأيته في ذلك المساء :

ان عينيه الجميلتين كانتا منتفختين من النحيب . فهو قد بكى حتى ارتوى من البكاء !! . .

وعندما عرفت السبب وجئت اسري عنه بعض ما به رفع رأسه برهة ونظر الي نظرة رجاء ويأس ثم عاد يذرف الدموع . .

ولما تقدمت لامسح دموعه وقد قبلت جبينه ، رفع رأسه ثانية ثم تمتم بصوت خنقته العبرات : قائلا

— آه يا عماه :

لو أن لي أماً : ! : . . .

فوجدت ابن اخي الصغير قد دخلها وبدأ يلعب بما تصل اليه يده ، وكانت هناك نظاراتها فكسر احدى عينيها !!

ولما دخلت عليه ورأت فعله طار صوابها ، فصفعته ، صفعة شديدة على هذه وأرادت ان تشفي غليلها منه بالضرب واللكم ، ولكن ام الصغير كانت اسرع من ذلك فأخذته من بين يديها ، بعد ان اشبعتها لوماً وعتاباً !!...

وهنا بدأ يصف لي بحرارة جرى الام وغضبها ، وتخليصها الطفل ، مما زاد اعجابي به : انه كان يحاول — لو استطاع — ان يصور لي شعورها النفساني ايضاً ، بما في مخيلته من الكلمات والتعبيرات القصيرة المحدودة !!... تكلم عن الام كثيراً وابتسامته تساعده على ذلك !

بيد انه سكت فجأة ، وعلت وجهه سحابة حزن لا ادري كيف خلقت ولا كيف اخفت من ثغره ذلك الابتسام .. فتركني وخرج ... !

في اليوم الثالث من هذه الواقعة ،

دخل ذلك الصغير الذي لم ينس شدة تلك الصفعة الى غرفة العمة ، بعد ان تحين الفرصة في غيابها وكسر — عناداً وانتقاماً — العين الثانية من نظارتها وخرج هارباً !!

لا انكر حيرتي في امري . فقد اصبحت ارى كل شيء يؤلمه ، واني ليذيبني . ليست دموعه . فقط : بل : تلك . . الكلمات . . التي نقشها في مخيلته ذلك الافتكار الطويل ، والانفراد المتواصل ، والتي هي وراء الدموع . . ولعلها الغريزة !! . . .

* * *

لليتيم ، نظرات ، خاصة مذيبة ، ليست لغيره في هذا العالم ، وقد كنت اراها تزداد قوة في عين صديقي الصغير !!

ولا ادري كيف فارقته تلك الحالة الروحية في احد الايام ؟ :

فقد دخلت الدار واذا به قد استقبلني في الباب وعلى ثغره شيء من الابتسام ، وهو ينظر في عيني من حين لآخر كمن يريد ان يفوه بشيء . . فادركت ان لديه سراً اطربه واسرعت الى غرفتي استمعه منه بلذة وسرور ، وكان ذلك السر هذه الوقعة :

لي عمة طاعنة في السن ، حادة المزاج . تكره الاطفال ولا تطيق ضوضاءهم فلا تفارق غرفتها ، حذراً من ان تثير غضبها مزاحهم الذي تستثقله ولعبهم الذي تمقته !!

وصدف ان خرجت ذلك اليوم من غرفتها لامر ما ، ورجعت

وكنت اذا رأيته بهذه الحالة ، شعرت بدافع يضطرني الى مسح دمعته ودفع حزنه ولا اكاد افعل حتى اتوقف عن العمل مضطراً :

ذلك لاني كنت أرى وراء الدمعة الاولى في آماقه ، دموعا كثيرة لايوقفها عن الانحدار الا تلك ! ووراء هذه الدموع الغزيرة ايضاً : اشباح اشبه بالسطور ، فكأنها كلمات نقشها في مخيلته ذات الافتكار الطويل ، والانفراد المتواصل !

أجل ! كنت ارى ذلك فارجع عن عزمي . وابحث عن وسيلة اخرى اقضي بها واجبي نحو هذا اليتيم التعيس ! :

ازددت اعتناءً به ، وشددت الوصية على اهلي في أن يضاعفوا مجاملته وملايمته ؛

ولكن :

عبثاً !!..

انه اصبح يعرف نفسه ؛ وكانت هذه المعرفة سبباً في ادامة تلك الدمعة .. الدمعة الاولى ! فهو مهيأ للبكاء ... للبكاء بحرارة . اذا فتحت له الطريق : تلك ... ألاولى !!..

انه يخجل الآن من اللقمة التي يزدردها . فلا يتناولها الا متفكراً !!

ويحيي من الابتسامة التي أهبها له فلا يقبلها الا متألماً ..

وهذا ما حدا بي على ان اكون حذراً من أثارة عواطفه . فلا افتأ اوصي الاهل بحسن الاعتناء به وعدم التلفظ بما يؤلمه من التأنيب اذا استحق ذلك !..

***

مضت عليه سنتان . وهو ينمو بالابتسامات . ويتغذى بجميل الصفح عن هفواته الصبيانية . فكان لا يعرف للحياة معنى غير اللهو واللعب ولا تفارق ثغره تلك الابتسامة الجذابة !!..

ولكني لحظت به في السنة الثالثة تغيراً محسوساً . آلمني كل الايلام فاجتهدت في ان احوله عنه ، فلم افلح !

تلك غريزة التوجع :

في اليتيم !!...

هو الآن لا يلعب كثيراً ،

ولا يبتسم ايضاً ! !

يحب ان يفتكر : طويلاً ،

ويحب الانفراد المتواصل ، لا سيما بعد ان يأتي من المدرسة وبعد تناول طعام العشاء :: تترقرق الدمعة في عينيه لأقل عتاب يوجه اليه..

لا . بل هناك ، دمعة دائمة ينظر من خلالها الى كل شي !!

اليتيم !

حدثني صديق لي قال :

احمد ، غلام في الثامنة من عمره ، القاه الفقر بين ايدينا بعد ان فتك بأبويه ! ..

جميل الطلعة ، ذكي الفؤاد . فلا تكاد تمر به حادثة الا وله بها نظرة صائبة ، ينطق بها عفواً في كلماته الساذجة المطربة :

خفيف الروح ، لطيف النكات ،

غلام ، يوشك ان يغبط ، لولا انه يتيم !!

وقد اصبحت ذا ولع بتربيته وتثقيفه ، فاجد لذة بمحادثته ، واسر اذا استصحبته معي في اكثر الاحيان ، ..

يحب اللعب كثيراً ،

ويحب الصراحة في القول . فاذا اقعدته عندي طويلا ، طلب مني بابتسامة جميلة ، اما ان العب معه او ان آذن له باللعب مع رفاقه الصغار ! !

وفوق كل ذلك ، فهو ذو شعور رقيق ،

رقيق جداً ! ! ..

الا نفسي !!..

ايتها النفس :

لقد تمنيت كثيراً فلم تفلحي في امانيك : فهبيني حق التمني مرة واحدة ، وثقي باني سأبلغك سؤلك !

ستجدين في ما سأتمناه مالم تجديه في الشمس والزهر في الطير والملك !

هبيني !

***

لقد وهبتني نفسي ذلك الحق وتمنيت ..

وقد ارضيتها بالتمني ،

ارضيتها ، واطربتها عند ماقلت :

ليتني ..

ليتني ايتها النفس ..

اجل ليتني ما كنت !!! . . .

أهب اذا شئت ؛ واسلب اذا ردت ؛

اقتل أياً كان ؛ وأصفح عمن خان

ارى وزرائي تدس علي الدسائس ؛ فلا بأس : هم بلاء الملوك ..

اسمع همساً وراء قصري ؛ .. هاهو قد ازداد ..

اصبح الهمس جلبة وضوضاء ؛

لعلها ثورة الشعب يريد خلعي ؟ ..

لا تثريب علي :

فالعرش عارية يهبها الشعب لمن اراد ويستردها متى اراد !

هاهو يدخل مزمجراً ! ..

يالنفسي :

. — لعلك ؟

. — نعم !

لقد رجعت كما كنت : انا ... !

في الصدر انقباض ؛ وفي القلب الم . وفي النفس حاجة ..

كل ما في الكون يطلب ان يكون :

(انا) : ذلك الانسان ؛ قاتل اخيه ؛ وناكث عهد ابيه

اجل ! كل ما في الكون يطلب ان يكون (انا) .

وكاد ان يزهق روحي .. هاهو يسرق سكين ابيه ليذبحني .. فلا بأس عليه :

انا خلقت ليتعلم بي الانسان لذبح ، فيذبح اخاه بعدي ..

لا لعاً لك !!

. — ليتني كنت :

. — انساناً

حاولت ان اشفي غليل هذه النفس بكل ما تمنته ، فكنت شمساً ، وصرت زهراً وعدت طيراً ورجعت انساناً فلم تنقع تلك الغلة ..

وها هي لا تريد الا ان تكون في مثلي !

اجل ! في (انسان) فمالها لم تطمئن ؟

ألست بانسان لي من عظم قلبي ، وسعة صدري ، ورقة عواطفي ما يؤهلني لان اكسبها الاطمئنان ؟ ؟

لك ما شئت :

. — ليتني كنت ..

. — ملكاً !

انا ملك تحني امامي القواد وتطأطئ الرؤوس ،

لي الحول والطول والقوة والفتوة ،

٠ — زهرة ! !

ها انا زهرة ناضرة : تكاد تلتهمني العيون . وتبتلعني النفوس !

ها يدٌ بشرية قد اقتطفتني !

انا في (الصدر) !

أكاد أذبل ، وارى عين قاطفي تنظر الي باشمئزاز !

سيقتلعني من (صدره) ليدوسني بقدميه ' قد رضيت بما قدرني فلهذا خلقت :

لأنعش (الانسان) ناضرة .. ولأحتمل ثقل قدميه اذا داسني ذابلة ! ... فما لنفسي ترتعش !

لقد عرفت الدواء وها انا أتجرعه بصبر وسكينة :

لقد رجعت : انساناً ! ! ...

ندمت ايتها النفس ؟ ؟ فلا تحزني !

٠ — ليتني كنت ..

٠ — طيراً ! ..

انا طير . اطرب السامع وانفي الهموم ، اسر الناظرين واجلو الشجن .. ذو ريش جميل ومنقار احمر ! .

ها قد اصطادني غلام صغير .. وضع في رجلي خيطاً .. لعب بي

كبد السماء !

أدور ولا أعرف كيف ادور ! أمشي ولا ادري الى أين أسير ، وأنا بغير ارادتي :

قد رضيت بهذه الحياة فذلك قضاء الله ! . . . ولكن :

ما لصدري منقبض ؟

وماذا الذي بقلبي من الألم ؟

وما هذه الحاجة التي تطلبها نفسي ؟

ويلاه ! لقد سئمت . . !

وقد عرفت الآن كيف انعشك فلبيك ايتها النفس :

. — ليتني كنت . .

يا للحيرة انها تمنى الآن ان ترجع فتكون :

. — انساناً

ها انا انسان . . في موضع كنت فيه منذ زمن . أشعر فأحس ، وأرى فأبصر وانصت فأسمع : امامي شمس ذابلة . . وحولي ازهار باسمة . . وفي أذني الحان طيور مطربة . . فما لنفسي ؟ ؟ . . انها تلفت انظاري الى الزهر وكأنها . . لقد فهمت :

. — ليتني كنت :

ويا لله مما اشعر ؟ !

ان نفسي وثبت في صدري عند هذه الكلمة وكادت ان تتم ما بدأت به فهي لا تطلب شيئاً الآن !

وقد ادركت السر ، فحاجتها في ان أكون . . . !

ها انا سأبدأ ولها ان تتمنى :

فليتني كنت :

شمساً . . !

(ليتني كنت شمساً) ! ! هذه امنية نفسي ! وهل اعجز عن نيلها بعد معرفتها وأنا ابن آدم ؟ ؟ !

قدني أيها الفكر !

حول عناصري .

اجعلني جرماً كبيراً ،

هبني حرارة ،

صيرني شمساً ايها الخيال !

واتبعيني ايتها النفس ! ! . .

ها انا :

الغزالة اذا طلعت . . . والعاملة اذا غربت . . والنار المحرقة في

التي توصلني الى تلك الخاتمة القاتلة . فبدأت أنس أرتياحاً في النفس وأصبحت اؤمل ان اجد بهذا الأرتياح ما انا في السعي ورائه من امد ؛ ولذا فأن نظراتي الآن الى ما حولي وطربي مما اسمع واری کان مقروناً بالانتباه الزائد والتفكر العميق ! :

*

« ما اسعد من لا يعقل ! »

ونظرت الى الشمس الذائبة . ورأيت اشعتها قد اتجهت نحو عيني ! وكأنها كانتا كنافذة تطل على قلبي فقد احسست بأن هذه الأشعة قد اثارت فيه كثيراً من الظلمات التي لم تثر منذ زمن بعيد . . منذ طفولتي . . !

وأثارت في عاطفة الانسانية حب الشكر في هذه المحسنة وزددت نظراً :

وازدادت اشعة .

وهل كنت الا بشراً ؟ . :

أن هبات المحسن قد حولت بي ذلك الشكر الى طمع في امتلاك ماله والصيرورة مكانه ! وعند ذلك سألت من في كآبة :

ليتني كنت . . . . ! !

هذا الذبول - وحولي ازهار تفتر عن ثغر باسم - فما ابدع ذلك الثغر وهذا الابتسام - وفي اذني الحان طيور صغيرة هي ابدع بكثير من تلك التي نصطنعها نحن الناس !

كل هذا شعر !!

والشعر نسمة آلهية تنفح القلب بذلك السرور الخفي الذي جلا عنه صدأ الهم والغم :

وأنما اين انا وذلك السرور ؛ فأن ما هربت منه لحق بي وها هي نفسي تلح علي فتؤلمني بهذا الالحاح ولا تفتأ كالطفل تناديني بقولها :

اريد ... اريد ...!

فماذا تريدين ؟ ؟

ايه : ما اكثر تطلبات هذا الأنسان . وما اعظم شقاءه (بقلبه) و(بنفسه) :

ما اسعد ذلك الذي يرى فلا يرى ويسمع فلا يسمع !

ما اسعد من لا يعقل !

* *

وكأني شعرت اذ وصلت بتخيلاتي الى هذا الحد بسيري في الطريق

ليتني كنت ...!

في الصدر انقباض لا اعرف له سبباً !

في القلب ألم خفي لا اقدر على سبر غوره .

فهو بعيد ، بعيد ، في ابعد زاوية منه

وفي النفس - ما اعجب تطوراتها - حاجة لا ادري ما هي ؛

حاجة . لها ارتباط بهذا الالم وذاك الانقباض . لم اجدها في نغمات (العود) وقد مللتها . ولا في بسمات الحفلات وقد سئمتها :

حاجة في النفس . بحثت عنها في جميع ما احسبه من مسببات السرور فلم اعثر عليها !

تلك ليست في مظاهر هذه الحياة ابداً .

فهي حاجة للنفس ، ولكنها في النفس .

وهل اصعب من البحث عن ما هو في كون اعظم بكثير من هذا الذي نراه ؟؟

***

ذلك ما حدا بي الى الهرب من غرفتي والالتجاء الى الطبيعة املاً بالتخلص من لحاجة نفسي .. امامي شمس تكاد تذبل - وما أجمل

وبدأوا ينظرون اليها باستغراب ، ولكنهم عادوا الى ما كانوا عليه ولم يعبأوا بلمعانها ، وامهم ايضاً !

طربت اذ ذاك لحصولي على ما الحق به مقالتي .

طربت كطربهم وقلت في نفسي :

اين اولئك الذين ينهكون انفسهم في الجد وراء السعادة وفي البحث عنها فيناجونها تحت هذا القباء ؟؟

اين اولئك الذين يعتقدون بأن من لا يعرف معنى السرور ولا يعلم كنه الألم هو جاهل . فيقفون على لذة هذا الجهل ؟؟ . .

اين . . . ؟؟ اين . . . !؟

واضعت تحوطاتي العقلية أمام هذا المشهد البهيج ، فتقدمت خطوة للأمام وقلت بصوت ، لا ادري كيف خرج :

انك سعيدة ايتها الأمرأة ! !

قلت هذا وانا أعلم انها لا تفهم معنى هذا القول . ولكنها عاطفة دفعتني للنطق فقلت ما قلت ؛

واذا بها ضحكت ، ضحكت طويلاً واشركت اطفالها بالضحك !

فخرجت من عندها وانا لا ازال اسمع رنين صوتها وكأني به يقول :

(السعادة في هذا العالم ايها الشاب لمن لا يبحث عنها ! ! . .)

انهم يضحكون ، فرحين !

يضحكون كثيراً وليس ثمت من لعب : اللهم الا صفعهم بعضهم وتراشقهم بالحصى .. وامهم ... قد جلست الى جانبهم وهي تغزل بمغزل لها ولكنها : هي ايضاً تضحك ..

تضحك كثيراً وصوتها قد علا جميع الاصوات !

فازددت حيرة وتقدمت نحوهم . ولكن رأيت الكبير قد صفع أخاً له صفعة مؤلمة سالت لها دمعة الأخير فتوقفت :

يالدهشة : انهم رجعوا للضحك وكان البادئ في ذلك هو (الباكي) ! ..

علمت اذ ذاك ان سلسلة تصوراتي المنقطعة قبل برهة بسبب هذا الحادث ستتصل به وسيكون لي من ذلك موضوع جميل اجعله عنواناً لمقالتي (السعادة) . فتقدمت بخطى ثابتة اليهم وحييتهم :

ان دخولي ازهبهم . فهربوا ملتجئين الى امهم وتجمعوا وراء ظهرها ينظرون الي بحيرة ! ..

ولم يلبثوا الا قليلاً حتى تبدلوا النظرات واسرعوا الى الضحك فاضطروني على مجاراتهم لئلا اسلم لهم بالسكوت اباحة الهزؤ بي !

ثم اخرجت عملة فضية والقيتها بين ايديهم فاسكتهم بذلك برهة

في هذا الفناء الذي هو بجانب منزلي والذي تطل عليه نافذتي .

اجل : والذي اسمع منه الان هذه الاصوات العالية الجميلة - اصوات السرور - يسكن احد الرعيان مع امرأته واولاده ..

في كل صباح وعند كل مساء .. في اكثر ساعات الليل ، كنت اسمع اصوات الضحك تتعالى في الفضاء وتتزايد كلما طال الوقت ...

اني اخذت هذا المنزل البعيد عن الضوضاء لأتلذذ بالوحدة . فلا يعكر صفوها علي متكلم !

الوحدة : بغيتي . وهنائي . وفيها كثير سروري . ولذا فكثيراً ما حاولت ان أخرج اليهم فأونبهم على ازعاجهم اياي وأدعوهم الى الهدو ولو في الليل ، الا انني كنت اراني سأكون كمن قابل السيئة بالسيئة ونفى بمنفعته سرور الغير ، فأردع نفسي عن الاقدام على هذا الجرم وأجلس صامتاً

وعاودتني تلك الفكرة هذه المرة . تخيل لي ان هناك بعض الالعاب الغريبة التي تثير منهم هذا الضحك العجيب ، فأردت ان اقف عليها في ذلك فائدة . ولذا تقدمت من حيث لا يشعرون بي وبدأت أرقبهم :

الام .. واطفالها وكبيرهم في الثالثة عشر كما علمت ..

يا لله !

وهذا الحزن في حقيقته ، هو سبب نعده لاصطياده . فنحن في جدنا وسعينا في بكائنا ورجائنا ، في املنا ويأسنا ، نظهر في صفات وتطورات مختلفة : ولكنها لاتختلف بغايتها ، عن صفة واحدة ، وطور واحد ، نطلب فيهما ، ماتقول عنه الفلاسفة : السعادة !!..

السعادة : هي ذلك الظبي النافر الذي يركض وراءه كل الناس :

الشعراء ، بآياتها ،

والفلاسفه . بحكمها ،

والاديان ، بتعاليمها ،

والجهلاء ، بتعاستها ،

وكلهم لن يدركونه !

فهو بعيد ، بعيد ،

بعيد . وجاد في السير . وليس لهم منه الا التفاتة من حين لآخر !!.

***

كنت على وشك الدخول المنزل بعد هذه السياحة التي قطعتها بهذه التفكرات ولم اكد افعل . حتى سمعت قهقهة اعقبتها كثيرات : فوقفت :

ولمسته ؛

ولكنه :

ذهب ! . . .

فكان وجوده في يدي ولمسي اياه :

برهة !

ورجعت كما كنت .

وها اني مللت الجلوس على الرابية ، وسأرجع :

لاروح عن النفس :

في المنزل !! . . .

* *

في كل عمل نعمله ، نحن البشر ، نطلب ذلك الشيء .. اجل ! نطلب : « الترويح عن النفس ، ونبالغ بوصفه في بعض الاحيان فنقول : (السرور !)

كل مظاهرنا الحياتية ، وجميع ثوراتنا النفسية : في اليأس والرجاء . في الفشل وعند الامل ، هي في طلب ذلك الشيء : الترويح عن النفس .. السرور .

نمسكه . فيفلت من ايدينا .. فنحزن لهذا الافلات !

بالمحسوس وقلت : هذه لها شبه بالأنغام وهي جميلة . وأما الباقيات فأبعدوها عني فاني لا افهمها . . . .

ولكن : هي برهة ، وما أسرع انقضاؤها !

لم يزل حولي كل ما كان . وانما لا ارى ما كنت اراه فيها من الجمال المنعش فأين هو ؟؟ . .

اين ما في الجبال البيضاء . والتلال الخضراء . والعيون الدكناء من مسببات الهناء ؟؟ اني لا اراها ! . . .

ان زوالها قد ضاعف بي الالم !

وفي مثل هذه الساعات الطويلة — ساعات التألم من تقلب النفس الغريبة — احسست بكره للحياة عجيب . يبعد عني كل مسر ويقرب كل محزن . حتى لو اتيح لي سماع نغمات الغرام تتلاعب بها شفاه الهيام لانتخبت من نغماتها كثيراً وطويلاً وقلت : هذه لها شبه بالنواح فهي مذيبة . واما تلك . . الباقيات فأبعدوها عني فاني لا افهمها ! . .

كل هذا التغير كان في برهة !! . .

ان سئمت الجلوس في المنزل . فخرجت اطلب شيئاً ، حسبت عهده بالترويح عن النفس ؛

فأمسكته ؛

السعادة

جاء المساء :

ومللت الجلوس في المنزل !

فخرجت اروح عن النفس ، بالقعود على رابيه هنا في غربي القرية .

كثيراً ما كنت أؤمها في مثل هذه الحالة !

هنالك ،

بين الازهار الزاهية ، والاعشاب الندية ، أحسست بشيء من الارتياح ، وشعرت بكثير من اللذة ، فارتميت عليها بفرح ووقعت عليها بدافع خفي !

ولا ادري كيف شعرت بتحول في نفسي اذ ان عيني بدأت ترى في كل شيء جماله الكامن فيه ، فامامي جبال جرداء وورائي تلال خضراء وفوقي غيوم الربيع ولكل منها في فؤادي موضع خاص يطربه وينفي عنه الأشجان ! ..

في هذه البرهة — برهة الطرب في الانسان — أحسست بلذة للحياة عجيبة تبعد عني كل محزن وتقرب كل مسر . حتى لو اتيح لي ان اسمع نواح ثكلى ، لانتخبت منه أنة او أنتين ، ولكابرت

اقرأ فيها ما يأتي :

« ان (الأمــل) كثيراً ما يفتح المرء باب النجاة في الحياة .

ولكنه . هو ايضاً ، كثيراً ما يفتح للبؤساء باب الموت فيحفر لهم بايديهم القبر !.. »

وهكذا كان . فأن مسيرنا دام نحواً من عشرين دقيقه :

وهناك ،

الى جانب صخرة ،

وفي حفرة ، حفرها بمعوله ذلك التعيس ،

وجدنا (الحاج علي) قد سقط ميتاً !!

وأمسكوه ثانية في منتصف الطريق وهو يحمل معوله فارجعوه الى البيت ..

وفعل مثل هذه الفعلة مرتين أيضاً فكان نصيبه منها الفشل وتعرضه لاشد حالات المرض القتالة ... ابكتني دموع امرأته عندما قصت علي هذه القصص لآخر مرة !!

***

كان ذلك عند الفجر حينما ايقظوني اذ اتت المسكينة لتخبرني ان الحاج علي مفقود !

ففهمت بالساعة الحالة ، واسرعت بارتداء ملابسي ، ثم استصحبت رجلاً وسرنا نحن الثلاثة في الطريق التي اعتقد انه لابد ان يمر فيها ، وكأني كنت اعلم بختام هذه المأساة ، بدأت اشعر باحتياجي للدموع بعد قليل !..

***

كانت الشمس قد مدت يدها لتمسح دمعة الفجر ، فبدأنا نميز الاشباح عن بعد ونرى ما امامنا من الصخور والتلال : ..

ان تلك الاشعة التي أنارت الارجاء وفتحت لنا باب الامل بالعثور علي المفقود عاجلاً كانت اشبه بصحيفة من نور حوت سطوراً كنت

حاولت كثيراً اقناعه بفساد رأيه فلم افلح !

طلبت منه ان يصبر حتى يبل فأبى :

« لا يلزمنا الا القليل من الوقت ، فنتعب ساعة ونحصل على ما نحتاجه للطبيب والدواء والاولاد ثم نأخذ . . . ولا اظنك تضن علينا بوساطتك في ما سنجده .. وان أردت ، فلك . . . »

. — كفى ياحاج ! وهلا انبتني عنك بحفر ذلك القبر

. — لا لا

وكأنه خشي ان اسبقه في التقاط هذا (الكنز !) فقام يحاول مخادعتي . باظهاره لي قبوله رأيي فابتدرني بعد ان صمت قليلا بقوله :

لعلك مصيب ياسيدي ! واني أؤمل ان ابل قريباً فأذهب الى نبش القبر .. ورأيت اني اطلت الجلوس فدعوت له بالشفاء ، ولعلمي بانه لابد من ان يقوم بعمل يعود بالوبال عليه ، اوصيت امرأته بالحذر الشديد والانتباه ومنعه عن الخروج من فراشه ان حاول ذلك ، وخرجت . . .

***

علمت بعد ذلك انه حاول النهوض والخروج مرة فصدته امرأته عن ذلك بعد ان استنجدت بالجيران ، فقعد مغاضباً . . .

انظر كيف هم حفاة وعراة .. وسل (تلك !) عما عندنا من مؤنة البيت افلا يلزمنا مال كثير لكل هذا يا سيدي . ومن لنا به ؟..

— كن مطمئناً يا حاج ! وسيهون علينا هذا بعد ابلالك القريب ان شاء الله !

— ان المال اقرب من ابلالي يا سيدي ؛ وهذه فرصة ان تسنح لنا مرة اخرى فبالله عليك اصغ الي !

— قل ما شئت !

وهنا بدأ التعيس يسرد قصته بحرارة وسرعة تمأ أسال عرقه فاصبح يتصبب على وجناته البارزة ..

وكان منها :

انه قبل ان يمرض بقليل . بينما كان آتياً من قرية (...) وجد وراء التل الذي يقرب من القرية هنا . صخرة نبت بجانبها كلأ يعتقد كل الاعتقاد بانه من ذلك الذي ينبت فوق القبور الملأى بالآثار القديمة وهو يطلب من امرأته ان تذهب معه ليلا ليحفر ذلك القبر فيخرج مافيه ... انه يوقن بان هناك كنزاً وهو لا يطلب الا ان تساعده في رفع التراب فقط . لانه مريض . وكم رجاني ان اقنعها في الذهاب معه الى هناك !..

فاجابني بما فيه الشكر بصوت ضعيف وجمل قصيرة وسكت :

هو لا يزال مريضاً ، ولعل احواله الصحية كانت سيئة في هذين اليومين فان آثار المرض كانت ظاهرة بقوتها وشدتها في وجهه . .

ولم يطل تفكري به وبحالته فانه بعد ان ظل زمناً لا ينبس ببنت شفة نظر الي نظرة طويلة وتحرك في فراشه ثم قال :

. — اعتقد ياسيدي بانك تريد الخير لنا كما تريده لنفسك . ولذا فاني سأحدثك بامر ذي بال واطلب معونتك فيه واؤكد بانك سوف لا تخبر (الحكومة) عنه ولو كان فيه كنوز العالم ! !

مسكين الحاج علي ! انه كان يحث في امر خطير ! ولم يخطئ ظني اذ هو في الكنوز !

نظرت اليه لاعلم ان كان مايقوله هذياناً ، فلم اجد أثراً لذلك : ان نظراته كانت لا تنبئ بهذيان !

. — نعم ياسيدي . سأحدثك بامر ذي بال واطلب معونتك فيه ، فان هذه اللعينة (واشار الى امرأته) تأبى مطاوعتي وتعود تقول لي في كل مرة (انك مجنون) !

. — ان كان الامر فيما يتعلق بصحتك فقله ياحاج علي !

. — لا ياسيدي ، بل هو اعظم من ذلك : انظر الى هؤلاء الصغار ؛

ظلت زمناً جامدة في مكانها ، واخيراً التفتت اليه وقالت بنغمة حزينه وصوت مرتج : اتمم الي سيدي (. . .) حديثك فهو ادرى مني بهذه الشؤون ،

ثم نظرت الي نظرة رجاء كادت ان تلبيها دمعتي !!

وانا ايضاً حرت في أمري . فتناولت مقعداً خشبياً مدت به الي وبقيت برهة اجمع حواسي ، بعد هذه المفاجأة التي احزنتني لاول وهلة!

رأيت الصغار . لا يزالون يصغون باهتمام الى حديث ابيهم الشيخ ، وهم ينتظرون بفروغ صبر تتمة الحديث . . فقلت في نفسي لعله كان يحدثهم عن عزمه على اشتراء اوعية جديدة لهم . . او شراء رطل دبس . . او شيء من هذا القبيل مما يسر به اولاد الفقراء !

والقيت بنظرة عليه ! فالفيت دخولي ، وقطعي عليه حديثه قد ترك في نفسه اثراً سيئاً . فهو مشتت الذهن ، مضطرب الفكر ، يتململ في فراشه وينظر الي كأنه لا يراني ، لا ، بل كأنه لا يريد ان يراني !

وحاول بعد حين ان ينهض ترحيباً بي فأجلسته وانا ابتسم له واقول :

— لاشك ان حديثك كان ذا اهمية ياحاج علي واني اطلب المعذرة ان كنت اسأت اليك بقطعه عليك بدخولي !!

الأمل !

قيل لي ان (الحاج علي) مريض ، فدعوت له بالشفاء !.

وأتتني امرأته يوماً تخبرني باشتداد المرض عليه . فاستصحبت طبيباً كان صديقاً لي وذهبت اعوده :

ليس ثمة من خوف عليه ، ولكن الطبيب أشار بان لايترك معرضاً للهواء ، لاسيما اذ يتجرع الدواء !

للرجل صداقة قديمة بيننا ولذا فاني اصبحت كثير السؤال عن صحته ، ولا أفتأ اذهب لعيادته كلما سنحت الفرصة

هو يتماثل الى العافية . ولكن الخطر لم يزل بناناً ..

وذهبت اليه يوماً ، فوجدته وقد احتاط به بنوه الصغار وجلست الى جانبه امرأته الوفية . قد اتكأ على وسادة وهو يحدثها بحديث — تركت من لذته ... واحداقه بها احداقاً غريباً انه — ذو شؤون !..

ولم أكد أطأ باب الغرفة حتى انتصبت امرأته على قدميها ، واستقبلتني بدمعة صفراء . وقفت وقوف اليائس الحائر في آماقها :

مسكينة ! انها كانت شاحبة اللون ، صفراء الوجه . لاتدري ماذا تقول !!

الا انها كانت في هذه المرة خالية من الهزؤ الممزوج بتملك فهي جميلة .. جميلة جداً .. صادقة ، وفيها الشفاء :

ولم يخب ظني : فقد وضع المجلة امامي وبدأ يقلب صفحاتها بيده ، وما اشد دهشتي اذ وضع يده على كلمة كانت عنوانا لمقالة هي :

الألم !!

وذهب .. فعلمت ان الجواب عن سؤالي الذي طالما تقت الى سماعه، هو فيها ، فبدأت اقرأها بلهف وشوق :

قرأت معظمها . حتى كدت انتهي منها .. فلم اجد ضالتي ..

ولكن . هناك . في آخر سطر . وفي آخر جملة عثرت عليها .. :

يالله كم كان توجعي شديداً ..

كنت كأني أسمعها من فمه . فهو يجيبني الآن عن سؤالي القديم بقوله :

أحبه :

احب الألم !.

أحب من يصاحبني . يصاحبني دائماً . يصاحبني حتى الموت !!

يجب ان اخضع لأمرك : ان نظراتك تقول لي لم يحن الوقت بعد ! ..

وها انا انتظر ...

* * *

كانت آخر ليلة ، قضيناها في المدرسة ، اذ ان الفحص قد تم ، واذن لنا بقضاء العطلة في منازلنا ...

كان كلٌّ منا لاهٍ بحديث مع رفيقه ، وقد ملأ الغرفة ضوضاء متقطعة . تظهر الفرق جلياً بين تلك الليلة وما قبلها ..

فدخل اذ ذاك .. ولحظت ان بيده (محابه) وهو كعادته : مبتسم ، ومتألم

وتقدم نحوي :

فقلت في نفسي ، سآخذ الحيطة الآن فلا ادعه يفلت دون ان يشفي مني جرح نفسي . وعزمت ؛ لا بل صممت ان ابادره وألح عليه بان يجيب عن سؤالي القديم :

— ولماذا ... ؟

بيد ان ابتسامته غلبتني على أمري ، وفعلت فعلتها في كأخواتها .

نقره في صدورنا دوماً . . .) وهكذا يقول (علم الحياة) :

***

كنت اقنع نفسي كلما خلوت بها بهذه الحقائق التي اكتسبتها في هاتين السنتين فتقنع . . واما اذا كان (هو) امامي . فأني كنت اشعر بجهلي كثيراً مما تجب علي معرفته فأزدري هذه الحقائق وتلك المكتسبات وأئن أنة الموجع الضال !

كنت اشعر بأن هنالك اناساً . يتغذون بالألم ، فلا يقدرون ان يعيشوا بغيره وهذا الرجل الواقف امامي . . اجل ! معلمي ، هو منهم . . ولكن . . لماذا ؟

اواه ! انه لا يريد ان يفهمني !

وها هو ، يبتسم كعادته دائماً . . ولكنه : واقسم على ذلك . يتألم ايضاً

***

لماذا ؟ لماذا ايها المعلم ؟ !

ها ان السنة الثالثة ستنقضي . واني أوقن بأنك بدأت ترتاح لما تراه فيّ من شديد السعي وراء فهم هذا اللغز ، ولكنك لا تزال تلهيني كالطفل بالأبتسامات ! . . انها هزؤ بي وبعواطفي ! فكفى ، وقل لي بربك ايها الرجل لماذا ؟ لماذا انت . . . ؟ !

ولـكن : يالله ما اشد ذكاء هذا الرجل ! انه كمن يرقب خروج تلك الـكلمة من فمي كان يردها بسرعة خارقة الى فؤادي بابتسامة رقيقة !

وهناك . يلتقي (ألمي) (بابتسامته) فأحس بجزع ويأس ، واتنهد تنهداً خفيفاً واقول في نفسي : رباه ! ولماذا اذاً ؟ هو يبتسم يبتسم دوماً ويتألم يتألم دوماً ؟

***

مضت سنة .. واعقبتها اخرى !

هو ، هو ، كما كان ...

اما انا ، فشعرت بتحول في نفسي :

بدأت افهم ان الألم نافع ومفيد ، ولـكن : الى حد ..

جميل : عند ما تظهر لنا (الحياة) بجسدها العاري وتطلب منا ستره بالدموع !! ..

نوى : لـكل ذي قلب في العالم ! ولـكنه كالحلوى وليس كالخبز والماء !! ..

نعم : (كل سرور يبتدئ بألم وينتهي بألم) .. هكـذا يقول (علم النفس)

(وإنما لا يجب ان نعتبر ملازمته الدائمة لنا كسبب يوجب علينا ان

من حقوقنا ، . حقوقنا الطبيعية الالآهية ؛ والويل لمن يجسر على انتزاعها منا ! ! !

وانما : كيف أؤلف بين السبب والنتيجة والابتسامة والألم ؟

ذلك ما لم استطع فهمه !

هو مبتسم ، مبتسم دوماً ومتألم ، متألم دوماً

فكيف يجتمع هذان وكيف يتفقان ؟ ؟

هل هناك اناسٌ يتغلبون على الفطرة فيرتدونهما ويظهرون للناس بمظهر النبوغ ؟ لا يبعد ! ام . . ؟ لا ادري . . . ! !

الألم ! الألم ! ولماذا يحبه هذا الرجل ، بل لماذا يحببه الينا ؟ ؟

هل هو مفيد الى هذا الحد ؟ . . وهلا جعلوا له درساً خاصاً به ان صح هذا ! ! ! او مضر يميت بواعث الأمل في نفس الشاب ؟ وكيف يجرأ معلم على بذره في نفوس تلاميذه اذاً ؟ ؟

هذه ألغاز ، اشغلت فكري كثيراً اذ ذاك !

ولما كنت أعلم ان من واجب التلميذ فهم الحقيقة من استاذه اذا تعسر عليه ذلك ، لذا فأني كنت اتحين الفرصة اذ ينتهي من حديثه في هذا الشأن لأقول له بلهف وشوق :

ولماذا . . . ؟ ؟ . .

انه يعرف كيف ينتخب من الشعراء ارقهم قلباً واسخنهم دمعاً، ويعرف كيف يثير الافئدة بتلك الرقة وهذه السخونة !

وهو مع ذلك مبتسم ، مبتسم دوماً
وكذلك : متألم، متألم دوماً !!

لم يدخل علينا مرة الا وابقى في افئدتنا شيئاً مما في فؤاده . ولا انكر فلا يخرج الا بعد ان يستصحب معه كثيراً من قهقهاتنا المتعالية التي كانت تجاوز حتى الغرف المجاورة !

لعله كان يتسلى بهذه (الأصوات الموسيقية) : اذ ان قهقهة التلميذ — على رأيه — ألذ من أرق نغم ابدعه اشهر موسيقي ! ولكن : ماذا اقول عن تلك الجمل التي كانت لا تبسط لنا الا افجع القضايا الحياتية، وأشدها تأثيراً في القلب والنفس ؟؟ .

ان مظاهر السكون التي كنا نطل عليها من نافذة حديثه اللذيذ ؛ بما فيها من سرور وحبور ورياض ، وغياض . وعمل وأمل كانت تظهر انها لا تساوي دمعة من بائس او أنةً من يائس !! .

مع هذا، فأني كنت ارانا لا نقرب بهذا الحديث وهذه الرؤية من الزهد فيها او الحط من كرامتها! لا ! بل نحن اشد تعلقاً من قبل، واكثر ولهاً فيها من ولهنا الأول ، بتنا نحب الحياة ! نحبها كثيراً ، ونعتقد انها

الألم

لن انساه : معلمي !

وكان يلقي علينا دروس (الآداب) ، فكنت مع جميع رفاقي انتظر الساعة اللذيذة التي يدخل بها علينا فتدخل معه تلك الابتسامة الرقيقة التي تعلو شفتيه فتفهمنا الدرس اكثر مما تفهمه كلماته !!

هو : مبتسم ، مبتسم دوماً

ولكنه ، هو ايضاً :

متألم ، متألم دوماً

ما قدنا الى شعر ، ليرينا كوامن السحر فيه الا والفت انظارنا الى قلب ذلك الشاعر المملوء بالآلام فقال :

انظروا الى تلك الدمعة التي وقفت بمنحدر الآماق . انها دمعة الفراق ، وهي التي انبتت هذا الغرس البديع الذي يأخذ بلبكم الآن !

وانظروا الى تلك التي اختبأت بين طيات الاجفان ، انها دمعة التعس . وهي التي خلقت هذا البيت البعيد عن الاشباه !

انظروا ! انظروا ! كل ما نظرنا اليه دموع !! ..

الشرق والشرقيين : حول شقائهم وجهلهم ، حول تعاستهم وبؤسهم ،
فأحسست في نفسي بانقباض ، يعادل ما شعرت به قبل ساعة من
اللذة فتركت القراءة وارتميت على السرير .

حاولت النوم فلم استطع !

رجعت الى تصوراتي القديمة !

غلبتني على امري !

طلبت مني ان اناديي الليل :

ولكن وجد بغيته وضالته . ادركت ان الليل الذي يجب ان اناديه
واطلب منه ان ينقشع وينصرم ، هو ليل الجهل ، ليل الشقاء
الضارب اطنابه في الشرق فذكرت ذلك المغني ، وذكرت القمر
والنجوم .. ذكرت الدويبات والصراصير ... ذكرت كل خيالاتي
وتصوراتي وتململت في فراشي ثم قلت انا ايضاً بدوري :

ياليل !

لااريد ليل العاشق ؛ ولاليل الشاعر والبائس ! لا .. ولا ،

اريد : ليلي !!

ولـكن : أهو ذاك الليل الجميل الزاهر ؟ او القاتم المظلم ؟

اريد ليلاً اناديه فاين هو ، ومن هو ؟؟

***

ورأيت ان هذه التتبعات الخياليه الفلسفية قد اتعبتني وأضاعت علي شطراً كبيراً من الليل يجب ان آخذ الراحة لنفسي فيـه ؛ فقمت من مجلسي ؛ وأنا تارة ارى لزوما للراحة فأسرع ، وتارة تحول دون ذلك خيالاتي هذه فأبطيء .. حتى وصلت ..

خلعت ملابسي ..

واخذت كعادتي في كل ليلة قبل النوم اطالع في بعض الـكتب الأدبية والصحف اليومية ..

قرأت شيئاً عن ثورة الهند ومصر !!

قرأت نتفا من اخبار الصهيونيين ومناصرة البعض لهم وقتلهم بهذه المناصرة الأنفس البريئة من الوطنيين !!

قرأت حكايةً عن مشعوذة اغوت فتاة وأضلتها عن السبيل :

قرأت . . . قرأت كثيراً ، وبالصدفة كان كله يدور حول

بهذه اللذة التي كنت كلما سألت نفسي عن اسبابها كان الجواب عنها صمت السكون العالم بما في نظراتي ونفسي والقائل لمن يؤنبني على ذهولي عن ادراك الحقيقة وهي ملموسة بيدي : ياليل :

لا انكر : وانا ايضاً كدت اتبع هذه المخلوقات وانشد كما ينشدون ،

أن هذه الكلمة تأثيراً يزيل كثيراً مما خفي عن الاحساس وما هو في النفس :

وكم لنا نحن ابناء الحياة من امثال هذه التعبيرات التي تظهر كثيراً من المكنونات دون ان نعرف لها حقيقة :

آه : اوف : ياليل : كلها من هذا القبيل . ولكن هذه الاخيرة ما ليس لغيرها من السحر ، فلا ترى نفساً ذائبة في جنح الظلام في هذه الاصقاع الا ولها بها ولع شديد ، ونداء خاص !!

ولكني ، وقفت عن ذلك :

وقفت . لاني اعلم ان المطالب في هذا النداء مختلفة ولاني اعلم ان لكل . ليلاً يناديه :

أنا اريد ان انادي الليل الذي اطمئن به حاجة نفسي ، ويكون لي في ندائي ما لهؤلاء في ندائهم !!

ومن يدري . ماذا ؟ ولقد ساقني هذا الشعور الى تصورات كثيرة :

اجل ! كثيرون في هذا العالم من ينادونه :

الشاعر يناديه : تضرعاً وخفية ، أملاً بأن يملي عليه بعض ما في ذاكرته من حديث التعساء ، ليخفف به مصائب البؤساء ! !

والعاشق يناديه : هرباً منه ، وحذراً من طوله . وليرى في (غده) ابتسامة من حبيبته ، او يحقق أملاً من آماله !

واليائس يناديه : ليوهبه من آفاقه ظلمة ، يضمها الى ظلمة قلبه فلا تبقى لتلك . . تلك التي في القبر في نفسه رهبة ! !

والتاجر والعامل والزارع يناديه : ليوصله الى مطلع الشمس فيعمل تحت ضوئها ما فيه نفعه !

والصحافي والوطني والتلميذ والمعلم يناديه : ليهبه الفجر فيهب امته فيه ما اكتسبه من الحقائق التي ترفعها الى العلى !

وكل من في الكون يناديه : هذا يطلب انصرامه وذاك يعشق ظلامه ولندائهم نغمات مختلفة الا ان اللفظ والمعنى واحد :

يا ليل ! !

***

بقيت ساعات طويلة ثملاً بهذه التصورات . . بهذه الوحدة . .

زمناً في ذهول فكري اطلقت فيه لروحي العنان في سماء الراحة من التخيل والتصورات ! ! . .

ورفعت رأسي بعد حين ، فرأيت القمر ، قد اختفى وراء سحابة بيضاء ، والنجوم تئن انين الثكالى ، وفي السماء لفقده مهابة وجلال ، يبعث في القلب حزن اللذة وينعش فيه لذة الحزن ! !

هنا ادركت ان الليل وفيه البدر ، نصيب كل حي ، ولكنه اذا فقده فلا يكون الا نصيب الشعراء والبؤساء !! . .

وما كدت انتهي من هذا الحكم في هذه القضية وأرجع الى نفسي شعورها بما يحدث حولها من حركات الكون حتى سمعت اصواتاً ... هي اصوات الدويبات الصغيرة والصراصير . . انها تقول شيئاً . . لم افهمه لأول وهلة . . ولكني اصغيت اليه . . اصغيت اليه كثيراً ، وتفهمته جيداً فكأني به :

ياليل !

أذاً ! ! ، .

وهنا ايضاً من يطلب الليل !

وهنا من يناديه بلهف وشوق !

وقد اختمل نظام السكون بجوار الرفاق عن المحل الذي يقضون فيه ليلتهم :..

دار التمثيل .. الرقص . الصور المتحركة هي المحال التي دار عليها البحث ، فتم الأختيار من الجميع — الا انا — على اولاها ..

لم اوافق ، لا لأني وجدت في هدو الليل وسكون الطبيعة . افضل ما اسكن به ثائر النفس في طلب الراحة فحسب ، بل لأني اجد في هذه الثلاثة (وعلى الاخص التمثيل والرقص عندنا) بما فيها من نقص ورداءة ودعارة وخلاعة انجع ما اقتل به نفسي الظامئة الى ورود مناهل ادبية !!

ودعتهم ، وعدت ادراجي الى شارع (النصر)

هناك . . . على مقعد من مقاعده ، وتحت شجرة الفت القعود تحتها في اكثر الليالي قعدت . .

وكان القمر قد اطل بوجهه الصبوح على الكائنات . وكأنه شهدني اخالس جواريه النظرات فأحب ان يقاصصني على جرأتي . باضحا كهن علي ، فاتجهت اشعته نحوي فكان كمن يقول : ايها السادر ...! اقتحمتني اشعة النجوم حتى امتلأت عيني بها ، فارجعت بصري الى الأرض ، واخفيت رأسي بين اغصان الشجرة المدلاة ، ولبثت

ووجدت حلاوة في الاستزادة من تخيل تلك النغمات الرقيقة ، فكانت نظراتي لاتنقطع عن الجهة التي هي مصدر الصوت .. وكأنها كانت تتزود بشيء من تقاطيعه العذبة اذا اصطدمت بحاجز يمنعها عن التقدم فكانت ترجع حاسرة الي وهي تفرغ في فؤادي كلمة :

ياليل !.. ياليل !..

وكانت ليلة زاهرة صمت فيها الضوضاء وتكم السكون . فلا تسمع فيها لاغية ولا ترى في الاطراف الا نجوماً خفقة . ومصابيح تشع — من الجبل(١) — كانها النجوم ..

وكأن هذه وتلك اشتركتا في الحذر من الضوضاء فكانتا في خفقانهما اشبه بقلب الخائف ، وكأن اشعتها القصيرة المتقطعة كانت كصوت الالكن الملدغ لاتحسن الا ان تقول بلغة الرجاء الى الانظار :

الليل !.. الليل !..

ذلك المنشد ، وتلك النجوم ، وهذه المصابيح كلها تلفت الالباب الى الليل ! وها انا قد التفت اليه بلبي :

ولكن !! هنا انقطع حبل تصوراتي اذ ان تجوالنا القصير قد انتهى ،

---

(١) جبل الصالحية

ياليل !!

صوت سمعته انا ورفاقي اذ خرجنا من المقهى . فاسترعى بنا السمع ، والجأنا الى الصمت ...

وعاد ،

فكان في هذه المرة رخيماً ، اكثر منه في الأولى ، اذ كان يخيل لي ان صاحبه قد شعر بلذة السكون الشامل ، واحس بضرورة مناجاة نفسه بتلك اللذة ، فاستمد من عواطفه القدرة على المناجاة ، واستعان بما وهبته الطبيعة من حسن النداء ، فناجى ونادى .. وكان نصيبه من قلب كل سامع التحبيذ بالسكوت والخشوع . وبطلب الرجوع الى النشيد ان كان ثمت من رجوع !!..

بيد ان الصوت خفت مع البعد ، فلم نعد نسمع غير هينمه الصدى ، . .

ولم نشعر الا ذ ذاك باسراعنا في الخطى وراء ذلك المنشد البعيد الذي توارى بين المنازل والجدران !.

وعدنا نمشي الهوينا ونحن لم نزل نجد في ارجاع ذلك الصوت الى مخيلتنا لذة وطلاوة ولذا فقد دام سكوتنا زمناً !..

اما ان قام طلاب (البلاغة) يلتمسون في سطوري هذه الاعجاز والأيجاز فلم يجدوهما .

وعشاق (البراعة) السهولة والرشاقة فلم يروهما ؛

وعباد (الفصاحة) القصر والطول فلم يعثروا عليهما

فليكتفوا بالحقائق ؛

وليعلموا انها اغاني

اغاني فحسب !

المهاجرين : ١٢ رمضان سنة ٣٤٠ — ابو غنيمه

واقفاً ،

منتظراً حكمه علي ،

ومادّاً يدي لمصافحته ؛

فان رأى فيما قرأ وسمع ما يجعلني في حل من اضاعة وقته فله اجر الحكم وعلي شكره . . . .

والا ،

فان رأى في الرأي اختلافاً ،

وفي الطريق طولاً ،

وفي النغمات انقطاعاً وتوتراً ،

فدفاعي ،

اني كتبت (الاغاني) بعد انبات جميع ما فيها عاطفة من عواطفي ،

فكنت اذا جلست للكتابة تناسيت الكون ومن فيه ؛

الا قلبي ،

فقرأت منه وانشدت اليه ،

ثم قمت الى قلمي

فلقنته ما قرأت وما انشدت . . . !

فهنا عواطفي ، وآرائي واسلوبي ، ولي الحق التصرف بها ،

الفاتحة

هذه (حقائق) ..

شهدتها عيني .

ولمسها قلبي .

فتغنى بها قلمي ! . .

قرأت بعضها في (دموع) الحوادث وبعضها في (بسمات) الأيام

وسمعت مابقي من افواه الناس فوضعت الكل على القرطاس . . .

وضعت ذلك في (غسق الليل) ؛

ووقعت نغماتي في (حندس الظلام) .

وسيجد القارئ نفسه اما سار معي في ماشعب من الطرق

فيمش في ايها شاء

فسيستمع نغماتي ،

خشنة كانت او رقيقة .

ليمش اذا شاء .

فسيصل الى الحقيقة ، . . .

وسيراني هناك ؛

كلمة الاهداء

الى

روح الشهيد

الامير عارف الشهابي

كلما ذكرتك ايها البطل العظيم والمجاهد الكبير ذكرت مع ابتسامتك الجميلة وشبابك الغض وشممك وإبائك هذه الواجبات :

ان لا انسى ...

وان اعمل لما عملت او اموت كما مت ...

وان اريق سنة بعد أخرى انقى دموعي في فجر ذلك الصباح الذي صرخت به تلك الصرخة العظيمة في وجه الموت فاندك لهولها صرح الظلم وثل عرش الاستعباد ! ...

وها اني في مثل ذلك الفجر وذاك الصباح اقوم باحدى واجباتي فاقدم اليك انقى دموعي :

في (اغاني الليل !)

ابو غنيمة

محمد صبحي ابو غنيمه

اغاني البلبل

﴿ مجموعة قصص اجتماعية اخلاقية ادبية ﴾

الجزء الاول

« طبعت على نفقة »

الامير عبد السلام الشهابي

بمطبعة الترقي في محلة القيمرية بدمشق

عام ١٣٤٠ هجري — ١٩٢٢ ميلادي